من الإعجاز البلاغي

في

سورة الواقعة

دكتور

عبد الرزاق عبد العليم ريان الشريف

الأستاذ المساعد بقسم البلاغة والنقد

كلية اللغة العربية بإيتاي البارود

جامعة الأزهر

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين . سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد

فالقرآن الكريم هو كلام الله المعجز للخلق فى أسلوبه ونظمه ، وفى علومه وحكمه ، وفى تأثير هدايته ، وفى كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة ، وفى كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول ، وفى كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول .

وقد تحدى سيدنا محمد ﷺ النبى العربى الأمى العرب بإعجازه على شدة حرص بلغائهم على إبطال دعوته ، واجتثات نبتته ، ونقل جميع المسلمين هذا التحدى إلى جميع الأمم فظهر عجزها أيضاً .

وقد نقل بعض أهل التصانيف عن بعض الموصوفين بالبلاغة فى القول أنهم تصدوا لمعارضة القرآن فى بلاغته ، ومحاكاته فى فصاحته دون هدايته ، ولكنهم على ضعف رواية الناقلين عنهم لم يأتوا بشيء تقربه أعين الملاحدة والزنادقة فيحفظوه عنهم ويحتجوا به لإلحادهم وزندقتهم .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ .

إن القرآن وجود لغوى ركب كلما فيه على أن يبقى خالداً مع الإنسانية فهو يدفع عن هذه اللغة العربية النسيان الذى لا يدفع عنه شيء ، وهذا وحده إعجاز .

ثم هو لن يكون كفاء ذلك ، ولن يقوم به إلا إذا كان معجزاً أهل اللغة جميعاً ، فتنكر به اللغة ولا يذكر هو بها ، وبذلك يحفظها إذ يكون فى إعجازه مشغلة العقل البيانى العربى فى كل الأزمنة يأتى الجيل من الناس ويمضى ، وهو باق بحقائقه ينتظر الجيل الذى يخلفه ، كأنما هو مشغلة الفكر الإنسانى إذا أريد درسُ أسمى نظام للإنسانية فى حرامها وحلالها مما تحله مصلحة الاجتماع أو تحرمه .

وهنا معنى دقيق بديع ، فإن الإديان إنما كانت على النبوات ، ولم يأت دين من الأديان بمعجزة توضع بين الناس يبحث فيها أهل كل عصر بوسائل عصرهم غير الإسلام ، بما أنزل فيه من القرآن فكأن النبوة فى هذا الكتاب متجددة أبدا ، يلتقى بروحها كل من يفهم وقائعه وأسراره ، فلا يلبث البليغ الذى يفهم القرآن – ولو لم يكن من أهله المؤمنين به – أن يستيقن فى نفسه أنه حارس على اللغة ثم يغلو فى هذا اليقين فإذا هو قد أوحت إليه نفسه أنه ليس حارساً على اللغة فحسب ، ولكنه كذلك من حراس المعجزة .

والقرآن الكريم معجزة الرسول الكبرى ، وحجة الله على العالمين ، وهو كتاب الكون كله ، فيه خبر الدنيا والآخرة ، وهو حبل الله المتين والنور المبين ، والصراط المستقيم ، به تكشف الظلمات وبه ترتقى الأمم إلى أعلى الدرجات ، وسيظل القرآن الكريم بكرا يجتذب الباحثين عن أسراره ، ويدعوهم لاجتلاء أنواره .

والله تعالى قد أوجد بالقرآن الكريم أعظم انقلاب فى البشر بتأثيره فى أنفس العرب ، إذ جعلهم بعد أميتهم أساتذة الأمم وسادة العجم ، وما فقد المسلمون هدايته إلا لجهلهم بأسرار لغته ، لذلك يهاجمه أعداؤه من طريق لغته .

فليعلم المسلمون هذا ، وليحرصوا على حفظ دينهم بحفظ لغتهم وممارسة آدابها وأسرار بلاغتها ، ولتكن غاية هذا كله فهم القرآن كما كان يفهمه سلفنا الصالح .

وإسهاماً منى فى البحث والتنقيب – بقدر الطاقة – عن مواطن الإعجاز فى القرآن الكريم ، كانت محاولتى هذه قاصداً من ورائها إظهار بعض جوانب الإعجاز فى سورة الواقعة ، إذ جاءت الدراسة تحت عنوان (من الإعجاز البلاغى فى سورة الواقعة) متناولا هذه السورة بالتحليل اللغوى من حيث الدلالات اللغوية ، ثم ما تضمنته من خصائص النظم وما فيه من قيم تعبيرية ولمسات جمالية ، تكشف للقارئ بعضا من أسرار إعجاز القرآن الكريم ، فيقف بنفسه على عظمة القرآن وعلو شأنه ، ثم ما فتح الله به من إلقاء الضوء على المعنى العام للآيات .

وكان منهجى فى هذا البحث – بعد المقدمة والتمهيد – قائماً على :

١- وضع المجموعة من الآيات ذات الهدف الواحد تحت عنوان مناسب .

٢- ذكر الدلالات اللغوية للألفاظ التى اشتملت عليها الآيات ، موضحاً اشتقاقاتها ومعانيها وما يقصد باللفظة فى هذا المقام ، مع إعراب لبعض الكلمات التى تعين على فهم المعنى .

٣- بيان خصائص النظم والأسرار البلاغية الكامنة فى هذا المقطع من الآيات حتى نقف على بعض أسرار الإعجاز القرآنى .

٤- توضيح المعنى العام الذى توحيه الآيات مما يساعد على فهمها .

وقد تضمن البحث مقدمة وتمهيداً وثمانية موضوعات ، ثم ذكراً للمصادر والمراجع ، وختاماً بالفهرس .

تحدثت فى المقدمة عن القرآن الكريم ، وأنه معجزة النبـــى - ﷺ - ، وقد وقع به التحدى لكل قدرات البشر ، وأن الباحثين شغلوا بقضية الإعجاز قديماً وحديثاً بغية الوقوف على بعض أسرار إعجازه ، كما ذكرت منهجـــى وما احتواه هذا البحث من موضوعات .

وفى التمهيد قدمت عرضاً مجملاً عن سورة الواقعة من حيث نزولهـــا وعدد آياتها وأغراضها ، ومناسبتها لما قبلها .

أما عن الموضوعات فهى على النحو التالى :-

الموضـــوع الأول : (بداية مثيرة تهز القلوب) .

الموضوع الثـــانى : (أقسام الناس يوم القيامة)

الموضوع الثالـــث :(جزاء القسم الأول من الأقسام السابقة وهم السابقون).

الموضوع الرابـــع : (جزاء القسم الثانى وهم أصحاب اليمين) .

الموضوع الخامس : (عقوبة القسم الثالث وهم أصحاب الشمال) .

الموضوع السادس : (دلائل وبراهين على قدرة الله تعالى) واشتمل على:

(أ) الخلق والموت .

(ب) الحرث والزراعة .

(ج) ماء الشرب ونار الإيقاد .

الموضوع السابع : (قسم الله على عظمة القرآن) .

الموضوع الثـــامن : (قدرة الله على الإماتة وعجز الناس عـــن المقاومـــة وجزاء كل نوع) .

ثم ذكرت المصادر والمراجع التى استقيت منهـا ، وأنهيـت الكتـاب بفهرس توضيحى لمحتوياته .

والله أسأل أن أكون قد وفقت فى هذا العمل المتواضع أمـام عظمـة القرآن الكريم وإعجازه ، وحسبى شرف القصد ، وبذل الجهد .

كما أسأله أن يكون ذلك زلفىَ منه وقربى ، وأن يجعل هـذا العمـل ابتغاء وجهه الكريم ، فهو ولى ذلك والقادر عليه ، والله من وراء القصـد ، وهو الهادى إلى سواء السبيل .

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ ﷺ

د٠عبد الرزاق عبد العليم ريان الشريف
الحوامدية – جيزة

١٢ ربيع الأول ١٤٢٥هـ

٢ مايو ٢٠٠٤م

تمهيد :

بين يدى السورة

سورة الواقعة مكية قال ابن عطية : بإجماع من يعتد به من المفسرين، وقيل فيها آيات مدنية أى نزلت فى السفر وهذا كله غير ثابت ا.هـ([1]) .

وقال القرطبى : عن قتادة وابن عباس استثناء قوله تعالى : ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ نزلت بالمدينة ([2]) .

وقال الكلبى : إلا أربع آيات : اثنتان نزلتا فى سفر النبى - ﷺ - إلى مكة وهما : ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ واثنتان نزلتا فى سفره إلى المدينة وهما ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن مسعود أنها نزلت فى غزوة تبوك([3]).

وهى السورة السادسة والأربعون فى ترتيب نزول السور وآياتها ست وتسعون آية نزلت بعد سورة طه .

وأغراض هذه السورة :-

التذكير بيوم القيامة وتحقيق وقوعه ، ووصف ما يعرض وهذا العالم الأرضى عند ساعة القيامة ، ثم صفة أهل الجنة وبعض نعيمهم ، وصفة أهل النار وما هم فيه من العذاب وأن ذلك لتكذيبهم بالبعث ، وإثبات الحشر

([1]) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز . لابن عطية ٢٣٨/٥ دار الكتب العلمية ببيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

([2]) الجامع لأحكام القرآن . للقرطبى ١٩٤/١٧ الناشر دار الكاتب العربى ١٩٦٧م .

([3]) التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور ٢٧٩/٢٧ مكتبة المدينة المنورة بدون تاريخ .

والجزاء والاستدلال على إمكان الخلق الثانى ، والاستدلال بدلائل قـدرة الله تعالى ، والاستدلال بنزع الله الأرواح من الأجسـاد والنـاس كـارهون لا يستطيع أحد منعها من الخروج ، على أن الذى قدر على نزعها بدون مدافع قادر على إرجاعها متى أراد أن يميتهم .

وتأكيد أن القرآن منزل من عند الله وأنه نعمة أنعم الله بها عليهم فلـم يشكروها وكذبوا بما فيه ..

ومناسبة السورة لما قبلها :-

أن السورة التى سبقتها – وهى سورة الرحمن – قد ذكر الله فيها ما آل إليه الثقلان من عذاب ونعيم ، فذكر ذلك مفصلاً فى سورة الواقعة لكل مـن السابقين المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين الضالين .

وقال الرازى : تعلق هذه السورة بما قبلها من وجوه :

الأول : أن سورة الرحمن مشتملة على تعديد النعم على الإنسان ، ومطالبتـه بالشكر ، ومنعه من التكذيب ، وسورة الواقعة مشتملة علـى ذكـر الجزاء بالخير لمن شكر ، وبالشر لمن كذب وكفر .

الثانى : أن سورة الرحمن متضمنة للتنبيهات بذكر الآلاء فـى حـق العبـاد وسورة الواقعة جاءت لذكر الجزاء فى حقهم يوم التناد .

الثالث : أن سورة الرحمن لإظهار الرحمة ، سورة الواقعة لإظهار الهيبة وقد جاء فى آخر سورة الرحمن الإشارة إلى الصفات من بـاب النفـى والإثبات وفى أول سورة الواقعة إشارة إلى القيامة وإلى ما فيها مـن المثوبات والعقوبات ، وكل واحد منها يدل على اسمه وعظمة شـأنه وكمال قدرته وعز سلطانه (٤) .

---

(٤) التفسير الكبير ومفاتيح الغيب . للإمام الرازى ١٤٠/٢٩ الطبعة الأولـى ١٩٨١ دار الفكـر ببيروت .

الموضوع الأول

بداية مثيرة تهز القلوب

قال الله تعالى : ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ {١} لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ {٢} خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ {٣} إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا {٤} وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا {٥} فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا {٦} ﴾ [الآيات ١-٦]

الدلالات اللغوية والإعراب :-

إن أول ما يلفت انتباهنا فى هذه الآيات الكريمة هو كلمة الواقعة فما معنى الواقعة ؟

الواقعة : اسم من أسماء يوم القيامة ومعنى وقعت الواقعة : جاءت القيامة (١) وللقيامة أسماء متعددة منها هذه الآية التى معنا .

ومنها : الساعة وجاء هذا الاسم ما يقرب من خمسين مرة (٢) .

ومنه قوله تعالى :﴿حَتَّى إِذَا جَاءتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ﴾(٣) .

ومنها : الحشر قال تعالى :﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾(٤) .

---

(١) القاموس القويم للقرآن الكريم للأستاذ / إبراهيم أحمد عبد الفتاح ٣٥١/٢ طبعة ١٩٨٣م الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .

(٢) الدر النظيم فيما ورد من أخبار حول آى الذكر الحكيم أ.د/ حمزة النشرتى ، أ.د/ عبد الحميد مصطفى ، والشيخ عبد الحفيظ فرغلى ٤٨١/١٨ طبعة ١٩٩٣م .

(٣) سورة الأنعام من الآية ٣١ .

(٤) سورة الكهف من الآية ٤٧ .

ومنها : يوم الجمع قال تعالى :﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾(١).

ومنها : البعث . قال تعالى :﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ....﴾ (٢) .

ومنها : التغابن . قال تعالى :﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾(٣) .

ومنها : الحاقة . قال تعالى :﴿الْحَاقَّةُ . مَا الْحَاقَّةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾(٤) .

ومنها : القيامة . قال تعالى :﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(٥) .

وجاء هذا الاسم فى القرآن الكريم سبعين مرة (٦) .

ومنها : الطامة . قال تعالى :﴿فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى . يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى﴾(٧) .

ومنها : الصاخة . قال تعالى :﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ . يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾(٨) .

---

(١) سورة الكهف من الآية ٩٩ .

(٢) سورة الحج من الآية ٥ .

(٣) سورة التغابن من الآية ٩ .

(٤) سورة الحاقة الآيات ١-٣ .

(٥) سورة القيامة الآية ١ .

(٦) الدر النظيم ٤٨١/١٨ .

(٧) سورة النازعات آيتا ٣٤ ، ٣٥ .

(٨) سورة عبس آيتا ٢١ ، ٢٢ .

ومنها : النشور . قال تعالى :﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ . ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ﴾(١).

ومنها : الغاشية . قال تعالى :﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾(٢) .

ومنها : الزلزلة . قال تعالى :﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾(٣) .

ومنها : القارعة . قال تعالى :﴿ الْقَارِعَةُ . مَا الْقَارِعَةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾(٤) .

إلى غير ذلك من الأسماء التى تتبئ عن قيام الناس لرب العالمين .

والواقعة أصلها : الحادثة التى وقعت أى حصلت ، يقال : وقع الأمر أى : حصل ، كما يقال : صدق الخبر مطابقته للواقع ، أى يكون المعنى المفهوم منه موافقا لمسمى ذلك المعنى فى الوجود الحاصل أو المتوقع على حسب ذلك المعنى .

فراعوا فى تأنيثها معنى الحادثة أو الكائنة أو الساعة .

والواقعة : الموصوفة بالوقوع وهو الحدوث .

---

(١) سورة عبس آيتا ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) سورة الغاشية آيتا ١ ، ٢ .

(٣) سورة الزلزلة آيتا ١ ، ٢ .

(٤) سورة القارعة الآيات ١-٣ .

والتعبير عنها بالواقعة : للإيذان بتحقق وقوعها لا محالة كأنها واقعة فى نفسها مع قطع النظر عن الوقوع الواقع فى حيز الشرط ، كأنه قيل : كانت الكائنة ، وحدثت الحادثة (١) .

وإذا فى قوله (إذا وقعت الواقعة) منصوبة ، إما : بليس كقولك : يوم الجمعة ليس لى شغل ، أو بمحذوف يعنى : إذا وقعت كان كيت وكيت ، أو بإضمار اذكر (٢) .

وقيل : بمضمر ينبئ عن الهول والفظاعة كأنه قيل : إذا وقعت الواقعة يكون من الأهوال مالا يفى به المقال ، وقيل : بالنفى المفهوم من قوله تعالى : ليس لوقعتها كاذبة . أرى لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله تعالى أو تكذب فى نفيها كما تكذب اليوم (٣).

وقيل : إن (إذا) ظرف متضمن معنى الشرط على ما هو الظاهر ، والعامل فيها عند أبى حيان الفعل بعدها فهى عنده فى موضع نصب – بوقعت – كسائر أسماء الشرط وليست مضافة إلى الجملة ، والجمهور على إضافتها فقيل : هى هنا قد سلبت الظرفية ووقعت مفعولا به لا ذكر محذوفاً ، وقيل : لم تسلب ذلك وهى منصوبة بليس(٤) .

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، لأبى السعود ١٨٨/٨ الناشر دار إحياء التراث العربى ببيروت . بدون تاريخ .

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل . للإمام الزمخشرى ٥٠١/٤ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (بدون تاريخ) .

(٣) تفسير أبى السعود ١٨٨/٨ .

(٤) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى الألوسى ١٢٩/١٤ دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

وقوله تعالى :﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ كاذبة اسم فاعل وقع صفة لموصوف محذوف أى : نفس ، واللام قيل : على حقيقتها أى : ليس لها إذا وقعت نفس تحدث صاحبها بإطاقة شدتها واحتمالها وتغريه عليها ، ويجوز أيضاً : أن تكون : كاذبة مصدرا بمعنى التكذيب وهو التثبيط وأمر اللام ظاهر أى : ليس لوقعتها ارتداد ورجعة ، كالحملة الصادقة من ذى سطوة قاهرة .

وذكر أن حقيقة التكذيب بهذا المعنى راجعة إلى تكذيب النفس فى كذبها وإغرائها وتشجيعها ، وأنشد على ذلك لزهير :

ليث بعثر يصطاد الرجال إذا ** ما الليث كذب عن أقرانه صدقا

ويجوز جعل الكاذبة بمعنى : الكذب على معنى : ليس للوقعة كذب بل هى وقعة صادقة لا تطاق ، أو على معنى : ليس هى فى وقت وقوعها كذب(١) .

وقيل اللام للتوقيت نحو قوله تعالى :﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾(٢) وقولهم : كتبته لكذا من شهر كذا ، وهى بمعنى (عند) وأصلها لام الاختصاص شاع استعمالها فى اختصاص الموقت بوقته ، وهو توسع فى معنى الاختصاص بحيث تتوسى أصل المعنى (٣) .

---

(١) المصدر نفسه ١٤/١٣١ .

(٢) سورة الإسراء من الآية ٧٨ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٧/٢٨٣ .

وجملة ﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا ﴾ استئناف بيانى ناشئ عن قوله ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ إلخ وهو اعتراض بين جملة ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴾ وبين جملة ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ .. إلخ .

قوله تعالى : ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف أى : هى خافضة لأقوام رافعة لآخرين كما قال ابن عباس ، وقدر أبو على المبتدأ مقرونا بالفاء أى : فهى خافضة ، وجعل الجملة جواب إذا فكأنه قيل : إذا وقعت الواقعة خفضت قوما ورفعت آخرين .

وقرئ بنصب خافضة ورافعة على أنهما حالان من الواقعة (١) .

قوله تعالى : ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا﴾ أى حركت تحريكا شديدا حتى ينهدم كل شئ فوقها من جبل وبناء ، وهذه الجملة متعلقة بخافضة أو برافعة على أنه من باب الإعمال ، أو بدل من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾ وقال ابن جنى وأبو الفضل الرازى : ﴿ إِذَا رُجَّتِ﴾ فى موضع رفع على أنه خبر للمبتدأ الذى هو ﴿ إِذَا وَقَعَتِ ﴾ وليست واحدة منهما شرطية بل هى بمعنى وقت أى : وقت وقوعها وقت رج الأرض (٢) .

وتأكيد الرج بالمصدر للدلالة على تحققه وليتأتى التنوين المشعر بالتعظيم والتهويل (٣) .

قوله تعالى : ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أى فتتت حتى صارت كالسويق الملتوت من بس السويق إذا لته ، وقيل : سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها فهو كقوله تعالى :﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾(٤) .

---

(١) روح المعانى ١٣٠/١٤ ، ١٣١ وكذلك الكشاف ٥٢/٤ .

(٢) روح المعانى ١٣١/١٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨٤/٢٧ .

(٤) سورة النبأ آية ٢٠ .

وقرأ زيد بن على رَجَّت وبَسَّت بالبناء للفاعل أى : ارتجت وتفتتت(١) ، والتأكيد بقوله : (بسا) كالتأكيد فى قوله (رجا) لإفادة التعظيم بالتنوين (٢) .

قوله تعالى : ﴿فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا﴾ أى : فصارت بسبب ذلك غبارا منتشرا (٣) والمراد مطلق الغبار عند الأكثرين ، وقال ابن عباس : هو ما يثور مع شعاع الشمس إذا دخلت من كوة ، وفى رواية أخرى عنه : أنه الذى يطير عن النار إذا اضطرمت (٤) .

خصائص النظم والأسرار البلاغية :-

افتتاح السورة بالظرف المتضمن الشرط ، افتتاح بديع لأنه يسترعى الألباب لترقب ما بعد هذا الشرط الزمانى ، مع ما فى الاسم المسند إليه من التهويل بتوقع حدث عظيم يحدث .

وفى قوله : ﴿وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ إيجاز بحذف الموصوف وهو القيامة أو الزلزلة أى : وقعت القيامة أو الزلزلة الواقعة (٥) .

كما أن فى قوله تعالى :﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ محسن التجنيس .

كما توجد فى قوله : (وقعت) استعارة من المعنى الأصلى فى وقوع الأشياء المادية ولما كانت القيامة ليست جسما ماديا كان الوقوع فيها على وجه الاستعارة ووصفت القيامة بالوقوع لتحقق وقوعها لا محالة .

---

(١) روح المعانى ١٣١/١٤ ، والكشاف ٥٢/٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٤/٢٧ .

(٣) تفسير أبى السعود ١٨٩/٨ .

(٤) روح المعانى ١٣١/١٤ .

(٥) من أسرار النظم فى القرآن الكريم للدكتور/ عبد العظيم المطعنى والدكتور/ فريد النكلاوى . طبعة ١٩٨٨ .

وإطلاق وصف الكذب فى قوله :﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ استعارة بتشبيه السبب للفعل غير المثمر بالمخبر بحديث كذب ، أو تشبيه التسبب بـــالقول ، قال أبو على الفارسى : الكذب ضرب من القول فكما جاز أن يتسع فى القول فى غير نطق نحو قول أبى النجم :

قد قالت الأنساع للـــبطن الحـــق ** قدما فآضت كالفنيق المحنـــق(١)

جاز فى الكذب أن يجعل فى غير نطق نحو :

وذبيانيـــــة وصـــــت بنيهـــــا ** بأن كذب القراطف والقـــروف(٢)

وفى قوله :﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ استعارة تمثيلية ، لأن المعنى : ليس لوقعتها نفس كاذبة بمعنى لا ينكر وقوعها أحدٌ ولا يقول للساعة لم تكونى ، لأن الكون قد تحقق ، كما يقول لها فى الدنيا بلسان القول أو الفعل ، لأن من اغتر بزخارف الدنيا فقد كذب الساعة فى وقعتها بلسان الحال لن تكـــونى ، وهذا كما تقول لمخاطبك ليس لنا ملك ولمعروفك كاذب أى : لا يكذبك أحـــد فيقول : إنه غير واقع . وهنا كما قلنا استعارة تمثيلية لأن الساعة لا تصـــلح مخاطبا إلا على ذلك إما على سبيل التخييل من باب لو قيـــل للشـــحم أيـــن تذهب؟ وهو الأظهر ، وإما على التحقيق (٣) .

---

(١) النسع : حزام يشد على بطن الدابة – آض : أحزن وأجهد – الفنيق من الإبل : الفحل – المحنق : المغتاظ غيظا شديدا .

(٢) القرف : الأديم ، والقرطفة : القطيفة المخملة . انظر التحرير والتنوير ٢٨٢/٢٧ .

(٣) روح المعانى ١٣٠/١٤ .

وفى قوله :﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ محسن الطباق بثبوت الضدين لشئ واحد، وإسناد الخفض والرفع إلى الواقعة مجاز عقلى إذ هى وقت ظهور ذلك (١) .

والجملة تقرير لعظمة يوم القيامة وتهويل لأمرها فإن الوقائع العظام شأنها الخفض والرفع كما يشاهد فى تبدل الدول وظهور الفتن من ذل الأعزة وعز الأذلة ، وتقديم الخفض على الرفع لتشديد التهويل ، او لبيان ما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ورفع السعداء إلى درجات الجنات .

والتعبير بالمفعول المطلق المؤكد للفعل فى قوله :﴿رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ للدلالة على تحقيق الوقوع وليأتى التنوين المشعر بالتعظيم والتهويل .

وفى قوله :﴿ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ﴾ استعارة لأن المعنى فتتت وذلك على تشبيه الجبال بالسويق ، وفى قوله :﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا﴾ تشبيه بليغ أى (فكانت كالهباء المنبث)(٢) .

ويجوز أن تكون هباءً على الحقيقة بقدرة الله تعالى فلا يكون هناك تشبيه .

المعنى العام للآيات :-

يبدأ الله تعالى السورة بقوله :﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ والمعنى : إذا قامت القيامة وذلك عند النفخة الثانية ، ومجئ إذا منصوبة بمضمر ينبئ عن الهول والفظاعة كأنه قيل : إذا وقعت الواقعة يكون من الأهوال ما لا يفى به

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨٢/٢٧ .

(٢)التحرير والتنوير ٢٨٤/٢٧ .

المقال، ومعنى ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أى : لا يكون عند وقوعها نفس تكذب على الله تعالى أو تكذب فى نفيها كما تكذب اليوم ، وليس لوقعتها وفى حقها كذب أصلا ، بل كل ما ورد فى شأنها من الأخبار حق صادق لا ريب فيه ومعنى ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أى : هى خافضة لأقوام رافعة لآخرين وهذا تقرير لعظمتها وتهويل لأمرها فإن الوقائع العظام شأنها كذلك ، فهى تخفض الجبابرة والمفسدين الذين كانوا فى الدنيا فى رفعة وسيادة ، وترفع الصالحين الذين كانوا فى الدنيا لا يعبأون بأكثرهم ، وتقديم الخفض على الرفع فى قوله:﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ لتشديد التهويل أو بيان لما يكون يومئذ من حط الأشقياء إلى الدركات ، ورفع السعداء إلى درجات الجنة ، أو بيان لما يكون من ذلك ومن إزالة الأجرام عن مقارها ونثر الكواكب وتسيير الجبال فى الجو كالسحاب .

ومعنى ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا...﴾ إلخ أى : إذا حركت الأرض تحريكا شديداً حتى ينهدم كل شئ فوقها من جبل وبناء ، ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ أى : فتتت حتى تصبح كالسويق الملتوت ، أو سيقت وسيرت من أماكنها من بس الغنم إذا ساقها ، ﴿فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا﴾ أى : فصارت بسبب ذلك غبارا منتشرا ، وتفريع ﴿ فَكَانَتْ هَبَاء مُّنبَثًّا﴾ على ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ﴾ لائق بمعنى البس ، لأن الجبال إذا سيرت فإنما تسير تسييرا يفتتها ويفرقها ، أى تسيير بعثرة وارتطام .

وهذا مثل قوله تعالى ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا. فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾(١) .

---

(١) سورة طه الآيتان ١٠٥ ، ١٠٦ .

فالمراد بالقاع ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به ، والمراد بالصفصف الأرض الملساء المستوية ، والمراد : أنك تراها مستوية لا ترى فيها ارتفاعا ولا انخفاضا وعندئذ يحاسب الناس على ما قدموا فيكون منهم السابق إلى جنة ربه ، ويكون أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وهذا ما تكشف عنه الآيات الآتية .

الموضوع الثانى

(أقسام الناس يوم القيامة)

قال الله تعالى :﴿ وكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً {٧} فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ {٨} وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ {٩} وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ {١٠} .(الآيات ٧ – ١٠)

الدلالات اللغوية والإعراب :-

الأزواج : الأصناف ، فالزوج يطلق على الصنف والنوع كقوله تعالى:﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾([1]) ووجه ذلك أن الصنف إذا ذكر يذكر معه نظيره غالبا فيكون زوجا . قال الراغب : الزوج يكون لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى فى الحيوانات المتزاوجة ولكل قرينين فيها ، وفى غيرها كالخف والنعل ، ولكل ما يقترن بآخر مماثلا له أو مضادا ([2]) .

وأصحاب الميمنة : هم الذين يؤيون صحائفهم بأيمانهم ، وأصحاب المشأمة : الذين يؤتونها بشمائلهم أو هم أصحاب المنزلة الدنية ، من قولك فلان منى باليمين ، وفلان منى بالشمال إذا وصفتهما بالرفعة عندك والضعة.

وقيل : أصحاب الميمنة هم أصحاب اليمن ، وأصحاب المشأمة هم أصحاب الشؤم ، لأن السعداء ميامين على أنفسهم بطاعتهم والأشقياء مشائيم عليها بمعصيتهم ، وقيل : يؤخذ بأهل الجنة ذات اليمين ، وبأهل النار ذات الشمال ([3]) .

([1]) سورة الرحمن الآية ٥٢ .
([2]) روح المعانى ١٣١/١٤ .
([3]) الكشاف ٥٢/٤ .

والسابقون : هم الذين سبقوا غيرهم ، وحقيقة السبق : وصول أحد مكانا قبل وصول أحد آخر ، فهنا مستعمل فى المبادرة والإسراع إلى الخير فى الدين كما فى قوله تعالى :﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

ويجوز أن يكون لفظ (السابقون) مستعملا فى المغالبة لتحصيل الخير كقوله تعالى :﴿ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ (٢).

وقيل : السابقون هم المخلصون الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه ، وشقوا الغبار فى طلب مرضاة الله عز وجل ، وقيل : الناس ثلاثة ، فرجل ابتكر الخير فى حداثة سنه ثم داوم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا السابق المقرب ، ورجل ابتكر عمره بالذنب وطول الغفلة ثم تراجع بتوبة فهذا صاحب اليمين ، ورجل ابتكر الشر فى حداثة سنه ثم لم يزل عليه حتى خرج من الدنيا فهذا صاحب الشمال (٣) .

والخطاب فى (كنتم) للناس كلهم ، وهذا تخلص للمقصود من السورة وهو الموعظة (٤) .

وقوله ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ، و(ما) فى قوله ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ مبتدأ ثان ، و﴿أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ خبر عن المبتدأ الثانى والجملة خبر الأول ، والأصل ما هم أى : أى شئ هم فى حالهم وصفتهم ،

---

(١) سور التوبة الآية ١٠٠ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٦١ .

(٣) الكشاف ٤/٥٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٢٧/٢٨٤ .

فوضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل فى التفخيم ، وكذا القول فى ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾(١) .

وقوله ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ يجوز أن يكون مبتدأ وخبراً على معنى: والسابقون هم الذين اشتهرت أحْوَالهم ، وعرفت محاسنهم كقول أبى النجم :

أنا أبو النجم وشعرى شعرى

ويجوز أن تكون ﴿وَالسَّابِقُونَ ﴾ الثانية تأكيدا للأول والخبر بعد ذلك ، فمآل جملة ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ونظيرتها جملة ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هو التعجيب من حالهم وطريقه هو الكناية ، ولكن بين الكنايتين فرقا بان إحداهما كانت من طريق السؤال عن الوصف ، والأخرى من طريق تعذر التعبير بغير ذلك الوصف (٢) .

ويجوز أن يكون (السابقون) مبتدأ والخبر فيما بعده ، ونقف على قوله (والسابقون) ، وأن يكون متعلق السبق الأول مخالفا للسبق الثانى أى : والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنة .

ولذا جوزوا أن يكون (السابقون) خبرا لقوله (والسابقون) وأن يكون صفة والخبر فيما بعده ، وإذا قلنا : إن (والسابقون) مبتدأ ، وأن (السابقون) .

الثانية خبرا كان ذلك كما يقال : الناس الناس ، وأنت أنت ، وهذا على تفخيم الأمر وتعظيمه (٣) .

---

(١) تفسير أبى السعود ١٨٩/٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٧/٢٧ .

(٣) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ص١٤٤ .

خصائص النظم والأسرار البلاغية :-

قوله ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ فيه إجمال ، ثم تفصيل وهذا مما يؤكد المعنى ويقرره .

ووضع الظاهر موضع الضمير في قوله ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ للتفخيم في ﴿ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وللتفظيع في ﴿ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ والمراد تعجيب السامع من شأن الفريقين في الفخامة والفظاعة ، كأنه قيل ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾ في غاية حسن الحال ، و﴿ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ في نهاية سوء الحال(١)

وإنما قيل : المراد بالاستفهام هنا التعجيب دون التعجب لاستحالة التعجب على الله تعالى ، لأنه لا يكون إلا من الشئ الذي خفي سببه والله تعالى لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء .

(والسابقون السابقون) هو الصنف الثالث من الأزواج الثلاثة ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف وأقدمهم في الفضل ليردف ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم ، على أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقا معرب عن إحرازهم قصب السبق من جميع الوجوه (٢) ، ولتشويق السامعين إلى معرفة صنفهم بعد ذكر الصنفين الآخرين .

(والسابقون السابقون) على القول بأنه جملة واحدة كقول القائل أنت أنت ، محتمل لأن يكون المراد أنه – لشهرة أمر المبتدأ بما هو عليه – لا حاجة إلى الخبر عنه ، أو أن يكون ذلك بالإشارة إلى أن في المبتدأ ما لا يحيط العلم به ، ولا يخبر عنه ، ولا يعرف منه إلا نفس المبتدأ ، والمعنى :

---

(١) روح المعاني ١٤/١٣١ ، تفسير أبي السعود ٨/١٨٩ .

(٢) روح المعاني ١٤/١٣٢ .

أنه لا يمكن الإخبار عنهم إلا بنفسهم فإن حالهم وما هم عليه فوق أن يحـــيط به علم البشر وفى ذلك من تعظيم أمرهم وتفخيمه ما لا يخفى (١) .

والسبق هنا مستعمل على سبيل الاستعارة ، وقد جمع المعنى الحقيقى والمعنى المجازى قول النابغة :

سبقت الرجال الباهشين إلى العلا : كسبق الجواد اصطاد قبل الظوارد

فيجوز أن يكون (السابقون) مستعملا فى المبادرة والإسراع إلى الخير فـــى الدين ، ويجوز أن يكون مستعملا فى المغالبة فى تحصيل الخير .

والتعبير بـــ(السابقون) الثانية بدلا من التعبير بـــ(مـــا) الاســـتفهامية التعجيبية التى فى قوله :﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ أبلغ فى الدلالة على شـــرف قدرهم وهذا مثل قول أبى الطمحان القينى :

وإنى من القوم الذين همو همـــو ** إذا مات منهم سيد قـــام صـــاحبه

مع ما فى اشتقاق لقبهم من السبق من الدلالة على بلوغهم أقصى مـــا يطلبه الطالبون(٢) .

المعنى العام للآيات :-

يخاطب الله تعالى الناس كلهم بقوله :﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًـــا ثَلَاثَـــةً﴾ ، أى : حين يحدث هذا الذى تحدثنا عنه من وقوع الواقعة وعدم التكذيب بها وكونها تخفض وترفع ، وترج الأرض ، وتبث الجبال حتى تكون مثل الغبار المنتشر حينئذ تنقسمون إلى أقسام ثلاثة ، أول هذه الأقسام أصحاب الميمنة ، ثانيهـــا أصحاب المشأمة ، ثالثها السابقون .

فأصحاب الميمنة هم الذين يجعلون فى الجهة اليمنـــى فـــى الجنـــة أو المحشر ، واليمين جهة عناية وكرامة فى العرف ، أو هـــم الـــذين يؤتـــون

---

(١) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ص١٤٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٨٧/٢٧ .

صحائفهم بأيمانهم أو هم أصحاب المنزلة السنية ، أو هم الذين يؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة .

وأصحاب المشأمة قيل هى اسم جهة مشتقة من الشـــؤم وهـــو ضـــد اليمين، فهو الضر وعدم النفع ، وقد سميا فى الآية الآتية أصـــحاب اليمـــين وأصحاب الشمال ، فجعل الشمال ضد اليمين كما جعلت المشأمة هنـــا ضـــد الميمنة إشعارا بأن حالهم حال شؤم وسوء ، أو هم الذين يؤتون صـــحائفهم بشمائلهم أو أصحاب المنزلة الدنية ، أو هم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار .

أما السابقون فقد اختلف فى تعيينهم فقيل : هم الذين سبقوا إلى الإيمان والطاعة عند ظهور الحق من غير تلعثم وتوان ، وقيل : هم الذين سبقوا فى حيازة الكمالات من العلوم اليقينية ومراتب التقوى الواقعة بعـــد الإيمـــان ، وقيل: هم السابقون إلى الهجرة ، وقيل : هم السابقون إلى الصلوات الخمس وقيل : هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم مقدمو أهل الأديان(١) .

وقيل : إن السابقين هم الذين سبقوا إلى ما دعاهم الله إليه وشقوا الغبار فى طلب مرضاة الله عز وجل (٢) .

وقيل : هم الذين سبقوا أمثالهم من المحسنين الذين عبر عنهم بأصحاب الميمنة فهم سابقون إلى الخير ، فالناس لا يتسابقون إلا لنوال نفيس مرغوب لكل الناس ، وأما الشر والضر فهم يتكعكون عنه (٣) .

لذا وجب على الناس جميعا أن يأخذوا حذرهم ويعملـــوا لهـــذا اليـــوم العظيم الذى لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

---

(١) روح المعانى ١٣٢/١٤ وانظر تفسير أبى السعود ١٨٩/٨ .

(٢) الكشاف ٥٢/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨٦/٢٧ .

الموضوع الثالث

(جزاء القسم الأول من الأقسام السابقة وهم السابقون)

قال الله تعالى "﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ {١٠} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ {١١} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ {١٢} ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ {١٣} وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ {١٤} عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ {١٥} مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ {١٦} يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ {١٧} بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ {١٨} لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ {١٩} وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ {٢٠} وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ {٢١} وَحُورٌ عِينٌ {٢٢} كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ {٢٣} جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {٢٤} لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا {٢٥} إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا {٢٦} . (الآيات ١٠ – ٢٦)

الدلالات اللغوية والإعراب :-

هذا القسم هو القسم الثالث فى الترتيب ولعل تأخير ذكرهم مع كونهم أسبق الأصناف وأقدمهم فى الفضل ليردف ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم ، لذا أخر فى الإجمال ليبدأ به فى التفصيل ، وأيضا أخر هذا القسم فى الإجمال لتشويق السامعين إلى معرفة صنفهم بعد أن ذكر الصنفان الآخران فى الأصناف الثلاثة ترغيبا فى الإقتداء .

وقد عرفنا فيما سبق معنى ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ، ونتعرض الآن لمعنى ﴿ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ فالإشارة فى أولئك إلى السابقين وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان ببعد منزلتهم فى الفضل ، ومحله الرفع على الابتداء وخبره ما بعده أى : أولئك الموصوفون بذلك النعت الجليل {الْمُقَرَّبُونَ} الذين قربت إلى العرش درجاتهم وأعليت مراتبهم، ورقيت إلى حظائر القدس نفوسهم الذكية .

فقوله تعالى :﴿ السَّابِقُونَ﴾ مبتدأ والإظهار فى مقام الإضمار للتفخيم و{أولئك} مبتدأ ثان أو بدل من الأول ، وما بعده خبر له أو الثانى ، والجملة خبر للأول (١) .

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ الجنة فى اللغة : الحديقة ذات الشجر ، وتطلق على دار النعيم فى الآخرة ، وتجمع على جنات ، والنعيم : كل ما يتلذذ به ويتنعم من مطعم ومفرش ومركب وغير ذلك ، ومن النعيم : الصحة والأمن ، ويفسره بعضهم بالنعم الكثيرة ، وبعضهم بلين العيش ورغده .

وقوله ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ متعلق بالمقربون ، أو بمضمر هو حال من ضميره أى : كائنين فى جنات النعيم ، وعلى الوجهين فيه إشارة إلى أن قربهم محض لذة وراحة لا كقرب خواص الملك القائمين بأشغاله عنده ، بل كقرب جلسائه وندمائه الذين لا شغل لهم ولا يرد عليهم أمر أو نهى ، ولذا قيل ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ دون جنات الخلود ونحوه وقيل : خبر ثان لاسم الإشارة إلى اللذة الجسمانية (٢) .

وقرأ طلحة فى (جنة النعيم) بالإفراد .

ولم يذكر متعلق (المقربون) لظهور أنه مقرب من الله ، أى : من عنايته وتفضيله ، وكذلك لم يذكر زمان التقريب ولا مكانه لقصد تعميم الأزمان والبقاع الاعتبارية فى الدنيا والآخرة (٣) .

وإيقاع ﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ بعد وصف (المقربون) مشير إلى أن مضمونه من آثار التقريب المذكور .

---

(١) تفسير أبى السعود ١٩٠/٨ .

(٢) روح المعانى ١٣٤/١٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٨٨/٢٧ .

وفى هذا الشأن نجد تساؤلات تظهر :

منها : أن قوله تعالى :﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يقتضى حصر المقربين فى السابقين ، فينبغى ألا يكون غيرهم مقربا ، وقد وصف الله الملائكة بأنهم مقربون فقال :﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (١) .

والجواب : أنهم المقربون من الأزواج الثلاثة .

فإن قيل : إن أصحاب الميمنة ليسوا من المقربين ؟ قيل : للتقريب درجات ، والسابقون فى غاية القرب ولا حد هناك .

ويحتمل وجها آخر وهو أن يقال : المراد : السابقون مقربون من الجنات حال كون أصحاب اليمين متوجهين إلى طريق الجنة لأنه بمقدار ما يحاسب المؤمن حسابا يسيرا ويؤتى كتابه بيمينه يكون السابقون قد قربوا من المنزل أو قربهم إلى الله فى الجنة وأصحاب اليمين بعد متوجهون إلى ما وصل إليه المقربون (٢) .

ومنها : أن قوله ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ قد عرف النعيم باللام هنا وجاء فى آخر السورة بدون اللام فقال ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ والمذكور فى آخر السورة هو واحد من السابقين فله جنة من هذه الجنات ، وهذه معرفة بالإضافة إلى المعرفة ، وفى آخر السورة غير معرفة فما الفرق بينهما ؟

---

(١) سورة النساء من الآية ١٧٢ .

(٢) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ١٥٦ .

يذكر الإمام الرازى أن الفرق بينهما لفظى ومعنوى فاللفظى : هو أن السابقين معرفون باللام المستغرقة لجنسهم فجعل موضع المعرفين – وهو الجنة – معرفا .

وأما فى آخر السورة فهو غير معرف لأن قوله ﴿إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أى : إن كان فرداً منهم ، فجعل موضعه غير معرف مع جواز أن يكون الشخص معرفا وموضعه غير معرف . كما قال تعالى :﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾(١) و﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ﴾(٢) وبالعكس أيضاً بأن يكون موضع الشخص معرفاً والشخص غير معرف .

وأما الفرق المعنوى : فأنه عند ذكر الجمع جمع الجنات فى سائر المواضع فقال تعالى :﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ﴾ وقال (أولئك المقربون فى جنات) لكن السابقين نوع من المتقين ، وفى المتقين غير السابقين أيضاً .

ثم إن السابقين لهم منازل ليس فوقها منازل فهى صارت معروفة لكونها فى غاية العلو ، أو لأنها لا أحد فوقها ، وأما باقى المتقين فلكل واحد مرتبة وفوقها مرتبة ، فهم فى جنات متناسبة فى المنزلة لا يجمعها صقع واحد لاختلاف منازلهم ، وجنات السابقين على حد واحد فى أعلى عليين يعرفها كل أحد ، وأما الواحد منهم فإن منزلته بين المنازل ، ولا يعرف كل أحد أنه لفلان السابق فلم يعرفها ، وأما منازلهم فيعرفها كل واحد ، ويعلم أنها للسابقين ولم يعرف الذى للمتقين على وجه كهذا (٣) .

---

(١) سورة الحجر الآية ٤٥ . وسورة الذاريات الآية ١٥ .

(٢) سورة القمر الآية ٥٤ .

(٣) تفسير الرازى ١٤٨/٢٩ .

قوله تعالى :﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ الثلة : اسم للجماعة من الناس (١) ، وقال الزمخشرى (٢) : هى الأمة من الناس الكثيرة قال الشاعر :

وجاءت إليهم ثلة خندفية ** بجيش كتيار من السيل مزبد

والظاهر أن : الزمخشرى أراد بالثلة معناها فى هذه الآية لا تفسير الكلمة فى اللغة ، لأن الصواب أن الثلة اسم للجماعة من الناس مطلقا قليلا كانوا أو كثيرا ، وهذا هو قول الفراء وأهل اللغة وصاحب لسان العرب وصاحب القاموس والزمخشرى فى الأساس .

ومعنى الأولين : قوم متقدمون على غيرهم فى الزمان ، والظاهر أن الأولين هنا مراد بهم الأمم السابقة قبل الإسلام بناء على ما تقدم من أن الخطاب فى قوله ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ خطاب لجميع الناس ، فالمنقرضون الذين يتقدمون من أمة أو قبيلة أو أهل نحلة يدعون بالأولين كما قال الفرزدق:

ومهلهل الشعراء ذاك الأول

وقد وصف أهل الإسلام بالآخرين فى حديث فضل الجمعة (نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا ، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه فهدانا الله فالناس لنا فيه تبع اليهود غدا والنصارى بعد غد) (٣) .

---

(١) المعجم الوجيز ٨٧ مجمع اللغة العربية طبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٩٤م .

(٢) الكشاف ٥٢/٤ .

(٣) متن صحيح البخارى بحاشية السندى للإمام عبد الله بن إسماعيل البخارى ١٥٧/١ ، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى بدون تاريخ .

وإذ قد وصف السابقون بما دل على أنهم أهل السبق إلى الخير ، ووصفت حالهم فى القيامة عقب ذلك فقد علم أنهم أفضل الصالحين من أصحاب الأديان الإلهية ابتداء من عصر آدم إلى بعثة النبى محمد - ﷺ - وهم الذين جاء فيهم قوله تعالى :﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(١) .

فلا جرم أن المراد بالأولين الأمم الأولى كلها ، وكان معظم تلك الأمم أهل عناد وكفر ولم يكن المؤمنون فيهم إلا قليلا كما تنبئ به آيات كثيرة من القرآن الكريم .

ووصف المؤمنون من بعض الأمم عند أقوامهم بالمستضعفين ، وبالأرذلين وبالأقلين .

ولا جرم أن المراد بالآخرين الأمة الأخيرة وهم المسلمون (٢) .

و﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ خبر مبتدأ مقدر أى : هم ثلة .. وجوز كونه مبتدأ خبره محذوف أى : منهم ، أو خبرا أولا أو ثانيا (لأولئك) .

وجوز أبو البقاء كونه مبتدأ والخبر (على سرر) .

و(من) تبعيضة كما هو بين ، فاقتضى أن السابقين فى الأزمنة الماضية وزمان الإسلام بعض من كل .

قوله تعالى :﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ السرر : جمع سرير وهو ما يجلس عليه أو يضطجع ، وأيضاً هو كرسى طويل متسع

---

(١) سورة النساء الآية ٦٩ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٩١/٢٧ .

يجلس عليه المتكئ والمضطجع ، له سوق أربع مرتفع على الأرض بنحـــو ذراع يتخذ من مختلف الأعواد ويتخذه الملوك من ذهب ومن فضة ومن عاج ومن نفيس العود كالأبنوس ويتخذه العظماء المترفهون من الحديد الصـــرف ومن الحديد الملون أو المزين بالذهب .

و(موضونة) مسبوك بعضها ببعض كما سبك حلق الدروع ، وفســره بعضهم بالمرمولة أى : المنسوجة بقضبان الذهب .

قال الأعشى :

ومـــن نســـج داود موضـــونة ** تسير مع الحى عيرا فعيـــرا

والاتكاء : اضطجاع مع تباعد أعلى الجنب والاعتماد على المرفق .

والتقابل : من تمام النعيم لما فيه مـــن الأنـــس بمشـــاهدة الأصـــحاب والحديث معهم .

لذا لا ينظر بعضهم من أقفاء بعض وهو وصف نهم بحســـن العشـــرة وتهذيب الأخلاق والآداب (١) .

والجار والمجرور (على سرر) خبر ثالث عن ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُـــونَ﴾ أو حال ثانية من اسم الإشارة ، وقيل : هو خبر آخر للضمير المحذوف أى هم: و﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا﴾ حال من الضمير المستقر فى الجار والمجـــرور أعنـــى : على سرر و(متقابلين) حال منه أيضاً ، ولك أن تعتبر الحالين متداخلين(٢) .

---

(١) انظر روح المعانى ١٣٥/١٤ ، أبا السعود ١٩١/٨ ، والتحرير والتنـــوير ٢٩٢/٢٧ والكشاف ٥٣/٤ .

(٢) روح المعانى ١٣٦/١٤ .

قوله تعالى :﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ . لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ .

الطواف : المشى المكرر حول الشئ وهو يقتضى الملازمة للشئ ووصف الولدان بالمخلدين أى : دائمين على الطواف عليهم ومناولتهم لا ينقطعون عن ذلك .

وقد فسر (مخلدون) بأنهم مخلدون فى صفة الولدان أى الشباب والغضاضة ، أى : ليسوا كولدان الدينا يصيرون قريبا فتيانا فكهولا فشيوخا.

وفسره أبو عبيدة بأنهم مقرطون بالأقراط ، والقرط يسمى خُلْداً وخَلَداً وجمعه خلدة كقردة وهى لغة حميرية استعملها العرب كلهم ، وكانوا يحسنون غلمانهم بالأقراط فى آذانهم .

وهؤلاء الولدان قيل : هم أولاد أهل الدنيا لم يكن لهم حسنات فيثابوا عليها ولا سيئات فيعاقبوا عليها ، روى ذلك عن على ﷺ وعن الحسن البصرى – رحمه الله – ، وفى الحديث : أولاد الكفار خدام أهل الجنة (١) .

وذكر الطيبى أنه لم يصح بل صح ما يدفعه أخرج البخارى وأبو داود والنسائى عن عائشة قالت : توفى صبى فقلت : طوبى له عصفور فى الجنة فقال – ﷺ – أو لا تدرين أن الله تعالى خلق الجنة وخلق النار فخلق لهذه أهلا ، ولهذه أهلا . وفى رواية : خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم (٢) .

و(يطوف) حال أخرى أو استئناف أى : يدور حولهم للخدمة .

وقيل هى بيان لجملة ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

---

(١) أبو السعود ١٩١/٨ .

(٢) روح المعانى ١٣٦/١٤ وانظر متن صحيح البخارى ٢٠٠/١.

و﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الأكواب : جمع كـــوب وهـــى الأقداح المستديرة أو الكيزان لاعروة لها ولا خرطوم .

والأباريق : جمع إبريق وهو إناء تحمل فيه الخمر للشاربين فتصـــب فى الأكواب والإبريق له خرطوم وعروة ، وفى البحر أنه من أوانى الخمـــر وأنشد قول عدى بن زيد :

ودَعَوا بالصبوح يوما فجـــاءت ** قينـــة فـــى يمينهـــا إبريـــق

وقيل : إنه إفعيل من البريق ، وذكر غير واحد أنـــه معـــرب – آب ريزاى – صاب الماء ، وهو أنسب مما فى بعض نسخ القاموس انه معـــرب – آب رى – بلازاى ، وأياما كان فهو ليس مأخوذا من البريق ، نعم الإبريق بمعنى المرأة الحسنة والبراقة ، والسيف البراق ، القوس فيها تلاميع مـــأخوذ من ذلك ، ولعله يقول بأنه عربى لا معرب ، وأن البريق مما فيه من الخمر، والشعراء يصفونها بذلك كقوله :

مشعشعة كأن الحـــص فيهـــا ** إذا ما الماء خالطها ســـخينا

أو لأنه غالبا يتخذ مما له نوع بريق كالبلور والفضة ([1]) .

و(الكأس) جنس يصدق بالواحد والمتعدد ، فليس إفراده هنا للوحدة فإن المراد كؤوس كثيرة كما اقتضاه جمع أكواب وأباريق فإذا كانت آنية حمـــل الخمر كثيرة كانت كؤوس الشاربين أكثر ، وإنما أوثرت صيغة المفـــرد لأن فى لفظ كؤوس ثقلا بوجود همزة مضمومة فى وسطه مع ثقل الجمع([2]) .

([1]) روح المعانى ١٣٦/١٤ .

([2]) التحرر والتنوير ٢٩٤/٢٧ .

وقيل : الإفراد لأنها لا تسمى كأسا إلا إذا كانت مملـــوءة (١) والأول أقوى ومعنى ﴿كَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ أى : خمر جارية من العيون كما قال ابـــن عباس وقتاده أى : لم يعصر كخمر الدنيا ، وقيل : خمـــر ظـــاهرة للعيـــون مرئية بها ، لأنها كذلك أهنأ .

وليس المراد بالمعين الماء ، لأن الكأس ليست من آنية الماء ، وإنمـــا آنيتهما الأقداح قال تعالى :﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ{٤٥} بَيْضَاء لَـــذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ{٤٦} لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ{٤٧} ﴾(٢) وتلك صـــفات الخمر والتصديع : الإصابة بالصداع ، وهو وجع الرأس من الخمار الناشئ عن السكر . والمعنى : لا تصيبهم الخمر بصداع .

ولفظ (عنها) فى (لا يصدعون عنها) أى لا يقع لهم صداع ناشئ عنها فهى منزهة عن ذلك بخلاف خمور الدنيا فاستعملت (عن) فى معنى السببية .

وقيل : لا يفرقون عنها بمعنى : لا تقطع عنهم لـــذتهم بســـبب مـــن الأسباب كما تفرق أهل خمر الدنيا بأنواع التفريق .

وعطف ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ﴾ على ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ فيقدر له متعلق دل عليه متعلق ﴿ لَا يُصَدَّعُونَ ﴾ فقد قال فى سورة الصافات ﴿وَلَا هُـــمْ عَنْهَـــا يُنزَفُونَ﴾ أى : لا يعتريهم نزف بسببها كما يحصل للشاربين فى الدنيا .

والنزف : اختلاف العقل ، وفعله مبنى للمجهول يقال : نـــزف عقلـــه مثل: عُنى فهو منزوف .

---

(١) روح المعانى ١٣٦/١٤ وأبو السعود ١٩١/٨ .
(٢) سورة الصافات الآيات ٤٥-٤٧ .

وقرأ الجمهور (يُنزَفُونَ) بفتح الزاى من أنزف المتعدى ، وقرأ حفص وحمزة والكسائى وخلف بكسر الزاى من أنزف المهموز القاصر إذا سكر وذهب عقله .

وقرأ ابن أبى إسحاق ﴿ وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الزاى قال : فى المجمع وهو محمول على أنه لا يفنى خمرهم .

والتوفيق بين القراءات أن الجمهور لبيان نفى الضرر عن الأجسام والثانية لبيان نفى الضرر عن العقول ، والثالثة لبيانِ عدم فناء الخمر .

قوله تعالى :﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ {٢٠} وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ {٢١} وَحُورٌ عِينٌ {٢٢} كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ {٢٣} جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ {٢٤} لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا {٢٥} إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا {٢٦} ﴾ .

وفاكهة بالجر عطفا على اكواب على انها مما يطوف به الولدان وقت الشراب تكريما لهم أو عطفا فى المعنى على جنات النعيم ، أى : هم المقربون فى جنات وفاكهة ولحم وحور . .

والفاكهة : الثمار والنقول كاللوز والفستق ، ويتخيرون : أى الجنس الذى يختارونه ويشتهونه ، ففعل يتخير يفيد قوة الاختيار ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أى : مما تميل نفوسهم إليه وترغب فيه ، وهنا عطف (لحم) على أكواب كما عطفت فاكهة عليها لأن الولدان يطوفون بهما عليهم .

واستشكل بأنه قد جاء فى الآثار أن فاكهة الجنة وثمارها ينالها القائم والقاعد والنائم ، عن مجاهد : أنها دانية من أربابها فيتناولونها متكئين ، فإذا اضطجعوا نزلت بإزاء أفواهم فيتناولونها مضطجعين ، وأن الرجل من أهل

الجنة يشتهى الطير من طيور الجنة فيقع فى يده مقليا ناضجا ، وإذا كان الأمر كما ذكر استغنى عن طوافهم بالفاكهة واللحم .

وأجيب – والله تعالى أعلم – بأن ذلك حالة الاجتماع والشرب ، ويفعلون ذلك للإكرام ومزيد المحبة والتعظيم والاحترام ، وهذا كما يتناول أحد الجلساء على خوان الآخر بعض ما عليه من الفواكه ونحوها ، وإن كان ذلك قريبا منه اعتناءً بشأنه وإظهاراً لمحبته والاحتفال به .

﴿ وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرفع عطف على (ولدان) أو على الضمير المستكن فى ﴿مُتَّكِئِينَ﴾ أو على مبتدأ حذف هو وخبره أى : لهم هذا كله وحور ، أو مبتدأ حذف خبره أى : لهم ، أو فيها حور .

وتعقب الوجه الأول بأن الطواف لا يناسب حالهن ، وأجيب بأنه لا يبعد أن يكون من الحور ما ليس بمقصورات فى الخيام ولا مخدرات هن كالخدم لهن لا يبالى بطوافهن ولا ينكر ذلك عليهن ، وأن الطواف فى الخيام أنفسها وهو لا ينافى كونهم مقصورات فيها أو أن العطف على معنى لهم (ولدان) و(حور) .

والثانى بأنه خلاف الظاهر جدا ، والثالث بكثرة الحذف([1]) .

وقرئ بالجر عطفا على جنات النعيم كأنه قيل : هم فى جنات وفاكهة ولحم ومصاحبة حور ، أو على أكواب لأن معنى يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب ، ينعمون بأكواب ، وبالنصب أى : ويؤتون حوراً ([2]) .

([1]) البحر المحيط لأبى حيان ٢٠٦/٨ الطبعة الثانية ١٩٨٣م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع وانظر روح المعانى ١٣٨/١٤ .

([2]) أبو السعود ١٩٢/٨ ، وانظر الكشاف ٥٤/٤ وانظر تفسير الرازى ١٥٥/٢٩ .

والحور : شدة بياض العين مع شدة سوادها ، يقال : أمـــرأة حـــوراء والجمع حُور ، والعيناء : حسنة العين وجمعها : عين وأصله عـــيْن بضـــم العين على فعْلَ كما تقول : حمراء وحُمر فكسرت العين لئلا تنقلـــب اليـــاءً واوا، وليس فى كلام العرب ياءً ساكنة قبلها ضمة ، كما أنه ليس فيـــه واو ساكنة قبلها كسرة .

والمعنى : أنهن بيض ضخام العيون جميلاتها .

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ صفة للحور ، أو حال منهـــا ، والأمثـــال : الأشباه ، ودخول كاف التشبيه على أمثال للتأكيد ، والمعنى : هـــن أمثـــال اللؤلؤ المكنون أو للمبالغة فى التشبيه (١) .

واللؤلؤ : الدر وهو أجسام مستديرة بيضاء لماعة تتكون فى الأصداف من رواسب بعض الحيوانات المائية ، والمكنون : المخزون المخبأ لنفاسته ، فهو مستور بما يحفظه لأنه أصفى وأبعد من التغيـــر ﴿جَـــزَاء بِمَـــا كَـــانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مفعول له لفعل محذوف أى : يفعل بهم ذلك كله جزاءً بأعمالهم أو بالذى استمروا على عمله ، أو هو مصدر مؤكد أى : يجزون جزاءً .

والجملة على التقديرين اعتراض تفيد إظهار كرامتهم بحيـــث جعلـــت أصناف النعيم الذى حظوا به جزاء على عمل قدموه وذلك إتمـــام لكـــونهم مقربين ثم أكمل وصف النعيم بقوله ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ وهى نعمة روحية فإن سلامة النفس من ســـماع مـــالا يحـــب سماعه ، ومن سماع ما يكره سماعه من الأذى نعمة براحة البـــال وشـــغله بسماع المحبوب (٢) .

---

(١) روح المعانى ١٣٨/١٤ ، والتحرير والتنوير ٢٩٦/٢٧ .

(٢) التحرير والتنوير ٢٩٦/٢٧ .

واللغو : هو مالا يعتد به من الكلام وهو الذى يورد لا عن روية وفكر فيجرى مجرى اللغا – وهو صوت العصافير ونحوها من الطير – وقد يسمى كل كلام قبيح لغوا ، والتأثيم : اللوم والإنكار وهو مصدر أثم بتشديد الثاء ، أى : لا يقال لهم أثمتم ، وضمير (فيها) عائد إلى (جنات النعيم) .

﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ قيلا : أى قولا فهو مصدر مثله ﴿ سَلَامًا سَلَامًا﴾ بدل من (قيلا) كقوله تعالى :﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾(١) .

وقال الزجاج : هو صفة له بتأويله بالمشتق أى : سالما من هذه العيوب أو مفعوله والمراد لفظه فلذا جاز وقوعه مفعولا للقول مع إفراده ، والمعنى : إلا أن يقول بعضهم لعض (سلاما) ، وقيل : هو مصدر لفعل مقدر من لفظه وهو مقول القول ومفعوله حينئذ أى : نسلم سلاما والتكرير للدلالة على فشو السلام وكثرته فيما بينهم لأن المراد سلاما بعد سلام ، والاستثناء منقطع ولولا ذكر التاثيم – على ما قاله السعد – لجاز جعل الاستثناء متصلا حقيقة ، لأن معنى السلام الدعاء بالسلامة وأهل الجنة أغنياء عن ذلك ، فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام لولا ما فيه من فائدة الإكرام ، وإنما منع التأثيم الذى هو النسبة إلى الإثم لأنه لا يمكن جعل السلام من قبيله وليس لك فى الكلام أن تذكر متعددين ثم تأتى بالاستثناء المتصل من الأول مثل أن تقول : ما جاء من رجل ولا امرأة إلا زيداً ، ولو قصدت ذلك كان الواجب أن تؤخر ذكر الرجل (٢) .

وقرئ سلامٌ سلامٌ بالرفع على الحكاية (٣) .

---

(١) سورة مريم من الآية ٦٢ .

(٢) روح المعانى ١٣٩/١٤ وانظر التحرير والتنوير ٢٩٧/٢٧ .

(٣) تفسير أبى السعود ١٩٢/٨ .

خصائص النظم والأسرار البلاغية :-

فى قوله تعالى :﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ . فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ .

نلحظ أن السبق فى الحقيقة هو وصول أحد مكانا قبل وصول أحد آخر لكنه هنا مستعمل على سبيل الاستعارة ، وقد جمع المعنيين قول النابغة :

سبقت الرجال الباهشين إلى العلا ** كسبق الجواد اصطاد قبل الظوارد

فيجوز أن يكون (السابقون) مستعملا فى المبادرة والاسراع إلى الخير فى الدين كما فى قوله تعالى :﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾(١) ، ويجوز أن يكون مستعملا فى المبالغة فى تحصيل الخير كقوله تعالى :﴿ وُلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾(٢) .

وتكرير السابقين للتعجيب من حالهم وطريقه هو الكناية لتعذر التعبير بغير ذلك الوصف ، فالمعنى أن حالهم بلغت منتهى الفضل والرفعة بحيث لا يجد المتكلم خبرا يخبر به عنهم أدل على مرتبتهم من اسم (السابقون) فهذا الخبر أبلغ فى الدلالة على شرف قدرهم من الأخبار بـ(ما) الاستفهامية التعجيبية فى قوله ﴿مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ وهذا مثل قول أبى الطمحان القفينى:

وإنى من القوم الذين همو همو ** إذا مات منهم سيد قام صاحبه

---

(١) سورة التوبة من الآية ١٠٠ .

(٢) سورة المؤمنون الآية ٦١ .

مع ما فى اشتقاق لقبهم من (السبق) من الدلالة على بلوغهم أقصى ما يطلبه الطالبون .

وحذف متعلق (السابقون) فى الآية لقصد جعل وصف (السابقون) بمنزلة اللقب لهم ، وليفيد العموم ، أى أنهم سابقون فى كل ميدان تتسابق إليه النفوس الزكية .

وأخر (السابقون) فى الذكر عن أصحاب اليمين لتشويق السامعين إلى معرفة صنفهم بعد أن ذكر الصنفين الآخرين من الأصناف الثلاثة ترغيبا فى الإقتداء .

والإشارة إلى السابقين بقوله (أولئك) للدلالة على التعظيم ، وقوله (أولئك المقربون) يدل على قصر التقريب عليهم ، أى : هم المقربون لا غيرهم .

وجملة ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ مستأنفة استئنافا بيانيا لأنها جواب عما يثيره قوله ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴾ من تساؤل السامع عن أثر التنويه بهم ، وهنا ما يسمى بـ(شبه كمال الاتصال) .

وبذلك كان هذا ابتداء تفصيل لجزاء الأصناف الثلاثة على طريقة النشر بعد اللف ، نشرا مشوشا تشويشا اقتضته مناسبة اتصال المعانى بالنسبة إلى كل صنف أقرب ذكرا ، ثم مراعاة الأهم بالنسبة إلى الصنفين الباقيين ، فكان بعض الكلام آخذا بحجز بعضه .

والمقرَّب : أبلغ من القريب لدلالة صيغته على الاصطفاء والاجتباء ، وذلك قرب مجازى ، أى شبه بالقرب فى ملابسة القريب والاهتمام بشئونه فإن المطيع بمجاهدته فى الطاعة يكون كالمتقرب إلى الله ، أى : طالب

القرب من الله فإذا بلغ مرتبة عالية من ذلك قربه الله ، أى : عامله معاملـــة المقرب المحبوب .

ولم يذكر متعلق (المقربون) لظهور أنه مقرب من الله أى : من عنايته وتفضيله ، وكذلك لم يذكر زمان التقريب ولا مكانه لقصد تعمـــيم الأزمـــان والبقاع الاعتبارية فى الدنيا والآخرة .

وقوله تعالى :﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ اعتراض بـــين جملة ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وجملة ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ الغرض منه التنويه بصنف السابقين وتفضيلهم بطريق الكناية عن ذلك بلفظى ﴿ ثُلَّـــةٌ وَقَلِيـــلٌ﴾ المشعرَيْن بأنهم قِلُّ من كُثْر ، فيستلزم ذلك أنهم صنف عزيز نفيس لما عهد فى العرف من قلة الأشياء النفيسة كقول الشاعر :

تعيرنـــا أنـــا قليـــل عديـــدنا ** فقلت لهـــا إن الكـــرام قليـــل

مع بشارة المسلمين بأن حظهم فى هذا الصنف كحظ المؤمنين السالفين أصحاب الرسل .

ولما فى هذا الاعتراض من الإشعار بالعزة قدم على ذكر مالهم مـــن النعيم للإشارة إلى عظيم كيفية المناسبة لوصفهم بـــ(السابقين) بخـــلاف مـــا يأتى فى أصحاب اليمين (١) .

وفى قوله ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ حذف المسند إليه وهو المبتدأ أى : هـــم ثلة وذلك إيجاز لكونه معلوما مما سبق ، وبين قوله ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ . وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ مقابلة .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٢٩٠ .

وفى قوله ﴿عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ حذف المسند إليه إذ التقدير : هم على سرر وجملة ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ حال جاءت للتأكيد ، أى : هم كائنون على سرر متكئين عليها ، وفائدة هذا التأكيد هو ألا يظن أنهم كائنون على سرر متكئون على غيرها كما يكون حال من يتكئ على كرسى صغير لا يسعه للاتكاء فيوضع معه شئ آخر للاتكاء عليه وفى (متقابلين) كناية عن حسن العشرة فى المجالسة وتهذيب الأخلاق والآداب (١) .

وجملة ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ مفصولة عما قبلها لشبه كمال الاتصال لأنها مستأنفة لبيان ما يحصلون عليه من النعيم ، كأنه قيل : ما حالهم وهم على هذه السرر ؟ فقيل : يطوف عليهم ...

والترتيب المراعى فى ذكر الأكواب ثم الأباريق ثم الكأس ترتيب فى غاية الفصاحة والحسن ، وذلك أن الكوب يصب منه الشراب فى الأبريق ، ومن الإبريق يصب فى الكأس .

و(مِنْ) فى قوله (من معين) بيانية إما لما فى الكأس وإما لما فى الأكواب والأباريق .

وقوله ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ . بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ كناية عن التنعم وأنهم مخدومون من غيرهم منعمون مترفون وفى قوله ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ترتيب غاية فى الحسن ، لأن معنى لا يصدعون لا يصيبهم الصداع وهو على طريقة الارتقاء ، لان نفى الصداع لا يقتضى نفى السكر فقال ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ لنفى السكر بعد نفى الصداع كقول القائل عن شئ : ليس فيه مفسدة كبيرة ثم يقول : ولا قليلة ، تتميما للبيان ، وكذلك جاء الترتيب حسنا إذ قدر معنى : لا ينزفون بلا ينفذ شرابهم ولا

---

(١) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ١٦٨ .

يفقدونه ، وذلك لأن عدم السكر لنفاذ الشراب ليس بعجيب ، لكن عدم سكرهم مع أنهم مستديمون للشراب أمر عجيب ، وكذا عدم صداعهم مع استمرار الشراب ودوامه غاية العجب .

وقوله تعالى :﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ نرى فيه اختيار لفظ ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ على يختارون وذلك لما فى الأول من لطيفة وهى أن التخير من باب التكلف ، فأنهم يأخذون ما يكون فى نهاية الكمال ، وهذا لا يوجد إلا ممن لا يكون له حاجة ولا اضطرار .

وتقديم ذكر الفاكهة على اللحم قد يكون لأن الفواكه أعز ، وبهذا يظهر وجه المخالفة بين الفاكهة ولحم طير ، فجعل التخير للأول ، والاشتهاء للثانى ولأن الاشتهاء أعلق بالطعام منه بالفواكه ، فلذة كسر الشاهية بالطعام لذة زائدة على لذة حسن طعمه ، وكثرة التخير للفاكهة هى لذة تلوين الأصناف(١) .

أو أن التقديم للفاكهة على اللحم للإشارة إلى أنهم ليسوا بحالة تقتضى تقديم اللحم كما فى الجائع فإن حاجته إلى اللحم أشد من حاجته إلى الفاكهة ، بل هم بحالة تقتضى تقديم الفاكهة واختيارها كما فى الشبعان ، فإن الفاكهة أميل منه إلى اللحم ، وجوز أن يكون ذلك لأن عادة أهل الدنيا لا سيما أهل الشرب منهم تقديم الفاكهة فى الأكل وهو طبعا مستحسن لأنها ألطف وأسرع انحداراً وأقل احتياجا إلى المكث فى المعدة للهضم وقد ذكروا أن أحد أسباب الهيضة إدخال اللطيف من الطعام على الكثيف منه ، ولأن الفاكهة تحرك الشهوة للأكل ، واللحم يدفعها غالبا (٢) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٥/٢٧ .

(٢) روح المعانى ١٣٧/١٤ .

وقوله ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ تشبيه فالمعنى : هن أمثـــال اللؤلـــؤ المكنون ودخول كاف التشبيه على (أمثال) للتأكيد ، فقد شبه الحور العين فى البياض والصفاء والنقاء بالدر المصون الذى لم تغيره الشمس والهواء .

وهذا الذى تقدم ذكره من أوصاف ﴿جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُـــونَ﴾ أى أن الجملة مفعول لأجله أو مصدر جاء بدلا عن فعله والتقدير : جازيناهم جزاءً فالجملة على التقديرين اعتراض تفيد إظهار كرامتهم بحيث جعلت أصـــناف النعيم الذى حظوا به جزاء على عمل قدموه ، وذلك إتمام لكونهم مقربين .

وأخر قوله ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ عن ذكر الجزاء مع أنه من النعم العظيمة لأن هذا من أتم النعم فهى نعمة روحية ، فإن سلامة النفس من سماع مالا يحب سماعه ، ومن سماع ما يكره سماعه من الأذى نعمـــة براحة البال وشغله بسماع المحبوب (١) .

وقيل : لأن الله بدأ بأتم النعم وهى الرؤية بالنظر حيث قال ﴿أُولَئِـــكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وختم بمثلها وهى نعمة المخاطبة على أن قول (سلاما) مـــن الله للعباد فى الجنة ، ولم يعين القائل فى قوله ﴿إِلَّا قِيلًا سَـــلَامًا سَـــلَامًا﴾ لعـــدم اختصاص هذا القول بقائل دون قائل ، حيث يسمع دائما من الملائكة ومـــن الناس (٢) قال تعالى :﴿وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَـــيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾(٣) وقال :﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾(٤) .

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩٦/٢٧ .

(٢) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ص ١٧٢ .

(٣) سورة الرعد من الآية ٢٣ ، من الآية ٢٤ .

(٤) سورة يس الآية ٥٨ .

وقال تعالى ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ نعمة أخرى بعد نعمة سابقة من الإنعام بالمسموع الذى يفيد الكرامة ، لأن الإكرام لذة روحية يكسب النفس عزة وإدلالا بقوله ﴿ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ وهو استثناء من ﴿لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾ بطريقة تأكيد المدح بما يشبه الذم وله موقع عظيم من البلاغة ، فالاستثناء متصل إدعاءً وهو المعبر عنه بالاستثناء المنقطع بحسب حاصل المعنى ، وعليه فإن انتصاب (قيلا) على الاستثناء لا على البدلية من (لغوا) .

وسلاما الثانى تكرير للأول تكريرا ليس للتأكيد ، بل لإفادة التعاقب أى : سلاما إثر سلام ، أو مشارا به إلى كثرة المسلمين فهو مؤذن مع الكرامة بأنهم معظمون مبجلون ، والفرق بين الوجهين أن الأول يفيد التكرير بتكرير الأزمنة ، والثانى يفيد التكرار بتكرير المسلمين .

وجئ بلفظ (سلاما) منصوبا دون الرفع مع كون الرفع أدل على المبالغة كما ذكر فى قوله ﴿قَالُواْ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾(١) وقوله ﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنكَرُونَ﴾(٢) وذلك لأنه أريد جعله بدلا من (قيلا)(٣) .

وفى الآيات السابقة نرى المنهج الأدبى فى القرآن الكريم ، وهو الذى يتجه إلى إثارة وجدان القارئ إثارة روحية رفيعة ، تحدث السرور فى النفس فتقبل ، أو تحدث فيها الألم فتأبى – كما سيأتى فى وصف أصحاب الشمال – والقرآن غنى بذلك لأنه لا يعتمد على التفكير وحده ليقنع ، ولكنه يتكئ عليه وعلى الوجدان ليستميل فهو فى وعده ووعيده وأوامره ونواهيه ، وقصصه

---

(١) سورة هود من الآية ٦٩ .

(٢) سورة الذاريات الآية ٢٥ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩٧/٢٧ .

ووصفه ، وابتهاله وتسبيحه ، بل وفى أحكامه وبراهينه لا يغفل هذه الناحية من نواحى النفس الإنسانية ، لأن العمل غالبا يرتبط بها ويقترن ، فالقرآن يهاجم ببلاغته جميع القوى البشرية ليصل إلى هدفه : من تهذيب النفس ، وحب العمل الصالح ، والإيمان بالله واليوم الآخر .

فالآيات السابقة بدءاً من قوله ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ إلى قوله ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ ونحو ذلك مما عنى به القرآن من ذكر لذائذ الجسد من طعام وشراب ونساء مما يمكن أن يقال فيه : إنه يثير لذات جسدية لا يعنى الأدب بإثارتها، وهنا يصح أن نشير إلى أن القرآن وقد نزل للناس جميعا عنى بأن يستميلهم إليه وفيهم المثالى ذو اللذة الروحية السامية ، والواقعى الذى لا يسمو بروحه عن واقع الحياة ، فنزل القرآن وفيه هذان الاتجاهان حتى يجد فيه كلا الفريقين بغيته .

ومما هو جدير بالذكر أن اللذائذ إنما وصفت فى معرض الحديث عن الجنة وأن القرآن يجمع فيها بين الواقعية والمثالية ، فنراه يتحدث فى الآيات التى معنا عن الأمن وضمان الخلود فى جنة الخلد ، وهى لذائذ روحية ويضم إلى وصف الجنة ونعيمها أنه لا لغو فيها ولا تأثيم إلا قيلا سلاما سلاما .

وهكذا يجد الواقعى فى وصف الجنة طلبته ، ويجد المثالى أمنيته على أنه كثيرا من هذه اللذائذ الجسدية يبعث الراحة فى النفس والاطمئنان إلى بهجة الخلود ، أفلا تطمئن النفس إلى هذه الأنهار الجارية ، والعيون المتفجرة، والثمار الدانية ، والزوجات الحسان المقصورات فى الخيام ، وهل يثير ذلك لذة جسدية فحسب ولا يثير فيها معنى الأنس والحنان ؟

والحق أن هناك مبالغة كبيرة فى ادعاء أن تلك الصفات خالصة لإثارات جسدية محضة (١) .

المعنى العام للآيات :-

يوضح الله تعالى جزاء النوع الأول وهم ﴿السَّابِقُونَ﴾ الذين بادروا إلى فعل الخيرات ، فالسابقون فى الدنيا إلى الخير يكونون من السابقين إلى الكرامة فى الآخرة ، فالجزاء من جنس العمل ، فهؤلاء السابقون أولئك المقربون إلى ربهم وفى ظل عرشه وفى دار كرامته ، والذين قربت درجاتهم فى الجنة من العرش وأعليت مراتبهم ، فهم فى جنات النعيم يتنعمون فيها وينالون ثواب ما قدموا من عمل طيب صالح فهناك مجموعة من الناس كثيرة من الأولين وهم الأمم من لدن آدم عليه السلام إلى سيدنا محمد - ﷺ - وقليل من الآخرين من أمة سيدنا محمد - ﷺ - ويحتمل أن يكون المقصود أن الأولين من متقدمى هذه الأمة والآخرين من متأخريها هؤلاء المقربون على سرر موضونة أى : مرمولة بالذهب مشبوكة بالدر والياقوت قد دخل بعضها فى بعض كما توضن خلق الدرع .

وقيل : متواصلة أدنى بعضها من بعض ، متكئين عليها أى : استقروا عليها متكئين متقابلين لا ينظر بعضهم فى أقفاء بعض ، وصفوا بحسن العشرة وتهذيب الأخلاق والآداب .

وهم على هذه الحالة لهم من يقوم بخدمتهم زيادة فى التكريم ، فقد جعل الله تعالى لهم فى الجنة خدماً من الولدان يطوفون عليهم باستمرار ومعهم شتى ألوان المتع المتعددة ، وهؤلاء الولدان مخلدون لا يموتون ولا

---

(١) من بلاغة القرآن . لأحمد بدوى ص ٢٧ ، ٤٤ ، دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة ١٩٧٧م.

يهرمون ولا تتغير حالهم . وقيل : مقرطون أى : يلبسون القرط كما سبق التعبير عنه .

واختلف فى هؤلاء الولدان على أقوال : أقرب هذه الأقوال أنهم أولاد أهل الدنيا لم تكن لهم حسنات فيثابوا عليها ، ولا سيئات فيعاقبوا عليها (١) .

هؤلاء الولدان يطوفون على السابقين بأكواب وهى كيزان لا خراطيم لها وأباريق وهى التى لها خراطيم يصب منها ، وكأس فيها الخمر التى هى من عين جارية من معين ، وليس من أوعية تتقطع وتفرغ ، بل من عيون جارية ، وقيل خمر ظاهرة للعيون مرئية بها لأنها كذلك أهنأ ، وهذه الخمر لها صفتان تتميز بهما عن خمر الدنيا فهى لا تصدع صاحبها من كثرة الشراب ودوامه ، ولا تذهب عقولهم بسكر أو غيره مما يؤذى وهذا معنى قوله ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ .

ومن فسر ينزفون بمعنى تنتهى خمورهم يكون المعنى حينئذ أنهم لا يلحقهم صداع ولا أذى مع كثرة الشرب واستدامته وأيضاً لا ينتهى الخمر مع طول مدة الشراب واستمراره . فالميزتان موجودتان على كلا التفسيرين .

ثم ذكر ربنا عز وجل نعما أخرى وتكريمات متعددة منها قوله ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ . وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ فالفاكهة يتخيرونها من بين الفواكه الكثيرة فهم يأخذون خير الفاكهة وأفضلها ، ولحم الطير الذى يتمنونه ويشتهونه موجود بين أيديهم .

وقدم ذكر الفاكهة على ذكر اللحم لأن الفواكه أعز ، وبهذا يظهر وجه المخالفة بين الفاكهة ولحم الطير فجعل التخير للأول والاشتهاء للثانى ، ولأن

---

(١) الكشاف ٤/٥٣ ، أبو السعود ٨/١٩١ روح المعانى ١٤/١٣٦ .

الاشتهاء أعلق بالطعام منه بالفواكه ، فلذة كسر الشاهية بالطعام لـــذة زائـــدة على لذة حسن طعمه ، وكثرة التخير للفاكهة هى لذة تلوين الأصناف .

فاللحم والفاكهة إذا حضرا عند الجائع تميل نفسه إلـــى اللحـــم ، وإذا حضرا عند الشبعان تميل نفسه إلى الفاكهة ، فالجائع مشته ، والشبعان غير مشته وإنما هو مختار ، وأهل الجنة يأكلون لا من جوع بل للتفكه ، فمـــيلهم إلى الفاكهة أكبر فيتخيرونها ، ولهذا ذكرت فى مواضع كثيرة مـــن القـــرآن بخلاف اللحم .

ومن النعم أيضاً للسابقين ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴾ فهـــن نساء ذوات حور وذوات عين وهى شدة بياض العين مع شدة ســـوادها مـــع الاتساع وهذا يقتضى وصفهن بأجمل العيون وأحسنها ، وليس جمال العيون فقط بل كل الحور جميل فهن كأمثال اللؤلؤ المكنون ، وهو الـــدر المحفـــوظ المخبأ لنفاسته ، فهن مقصورات فى الخيام أى : قصـــرن أطـــرافهن علـــى أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهن وهن محفوظات فى الخيام بعيـــدات عـــن مسببات الاختلاط بالملوثات .

وقد روى أنه سطع نور فى الجنة فقيل ما هذا ؟ قيل : ضـــوء ثغـــر حوراء ضحكت ، كما روى أن الحوراء إذا مشت يسمع تقديس الخلاخل من ساقيها ، وتمجيد الأسورة من ساعديها ، وأن عقد اليـــاقوت يضـــحك مـــن نحرها، وفى رجليها نعلان من ذهب شراكهما من لؤلؤ يصران بالتسبيح(١) .

---

(١) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معانى التنزيل لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن ، المجلد الرابع ج٧/١٧ ، دار الفكر ١٩٧٩م .

هذه النعم السابقة التى ذكرت فى حق السابقين إنما هى جـزاء لهـم ﴿جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أى : أعطاهم الله تعالى النعم السابقة جزاء علـى فعلهم الصالحات فى الدنيا .

ثم أكمل وصف النعيم بعد هذه الجملة المعترضة لإظهـار كـرامتهم بقوله ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا . إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ فالجنة لا تسمع فيها لا غية ، ولا كلاما عبثا خاليا عن المعنى ، أو مشتملا على معنى قبيح، ولا كلاما فيه فحش يجر على الإثم ، وإنما يسمع ما يفيد الكرامة والعزة فهو القول ﴿ سَلَامًا سَلَامًا﴾ فهو إما من قول الملائكة الموكلين بالجنة ، وإما يتلقاه بعضهم من بعض وإما من قول الله تعالى لهم .

يشير إلى هذا قوله تعالى :﴿وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَـابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(١) ، وقوله تعالى :﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾(٢) ، وقوله تعالى :﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾(٣) فهم بهذا يسـعدون أى سعادة ، لأن الرضا والعيش الهنيء والأمل الذى وجدوه كله قد تحقق فلا غاية لهم إلا ذلك فهم فى رضوان الله تعالى وكنفه وتكريمه .

نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم ، ويشملنا بعطفة ورعايته ، إنه سـميع قريب يجيب .

---

(١) سورة الرعد من الآية ٢٣ ، والآية ٢٤ .

(٢) سورة يونس من الآية ١٠ .

(٣) سورة يس الآية ٥٨ .

الموضوع الرابع

جزاء القسم الثانى وهم أصحاب اليمين

قال الله تعالى :﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ{٢٧} فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ{٢٨} وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ{٢٩} وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ{٣٠} وَمَاء مَّسْكُوبٍ{٣١} وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ{٣٢} لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ{٣٣} وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ{٣٤} إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء{٣٥} فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا{٣٦} عُرُبًا أَتْرَابًا{٣٧} لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ{٣٨} ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ{٣٩} وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ{٤٠} .(الآيات ٢٧ – ٤٠)

الدلالات اللغوية والإعراب :-

جملة ﴿ أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ عطف على جملة ﴿أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ عطف القصة على القصة ليشرع فى تفصيل شئون أصحاب اليمين بعد بيان شئون السابقين ، وقوله ﴿ أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ مبتدأ ومضاف إليه ، خبره جملة ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ بإبهام يفيد التنويه بهم كما تقدم فى قوله ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ ، وأتبع هذا الإبهام بما يبين بعضه بقوله ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ .... إلخ .

وعلى قولنا أن جملة ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ خبر للمبتدأ يكون قوله ﴿ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خبر ثان له ، أو خبر لمبتدأ محذوف أى : هم فى سدر والجملة استئناف لبيان ما أبهم فى قوله عز وجل ﴿ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ من علو الشأن ، وإما معترضة والخبر هو قوله ﴿ فِي سِدْرٍ﴾ ، وجوز أن تكون تلك الجملة فى موضع الصفة ، والخبر هو هذا الجار والمجرور .

والتعبير بالميمنة فيما سبق ، وباليمين هنا للتفنن .

والسدر : شجر النبق وهو من شجر البادية ، ولما كان محبوبا عند العرب ولم يستطيعوا أن يجعلوا منه فى جناتهم وحوائطهم ، لأنه لا يعيش إلا

فى البادية فلا ينبت فى جناتهم ، خص بالذكر من بين شجر الجنة إغرابا به وبمحاسنه التى كان محروما منها من لا يسكن البوادى وبوفرة ظله وتهـدل أغصانه ونكهة ثمره .

والمخضود : الذى قطع شوكه وأزيل ، وإذا كان كـذلك فقـد كملـت محاسنه بانتفاء ما فيه من أذى .

اخرج الحاكم وصححه والبيهقى عن أبى أمامة قال : كـان أصـحاب رسول الله - ﷺ - يقولون : إن الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسـائلهم أقبـل أعرابى يوما فقال : يا رسول الله لقد ذكر الله تعالى فى القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى انه فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ! قال : وما هى ؟ قـال : السَّدر فإن له شوكا ، فقال رسول الله - ﷺ - أليس الله يقول :﴿ فِـي سِـدْرٍ مَّخْضُود﴾ خضد الله شوكه فجعل مكان كل شوكة ثمرة ، وأن الثمـرة مـن ثمره تفتق عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما فيها لون يشبه الآخر .([1])

وقد أخرج ابن المنذر عن يزيد الرقاشى أن النبقة أعظم مـن القـلال والظرفية مجازية للمبالغة فى تمكنهم من التنعم والانتفاع بما ذكر .

وقيل : مخضود أى : مثنى أغصانه لكثرة حمله من خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب ([2]) .

وعلى هذا فكلمة (مخضود) تدل على معنى قطع الشوك منه ، وفيـه يفترق مخضود عن مقطوع بأن الخضد يكون للشوك أو لما هو لين منـه ، وأما القطع ففيه معنى الإبانة والبتر والبت .

([1]) روح المعانى ١٣٩/١٤ . وانظر متن صحيح البخارى ٨١/٢ .
([2]) تفسير أبى السعود ١٩٢/٨ .

وبهذا الملحظ فى الفرق بين الخضد والقطع تحتفظ الكلمة القرآنية بخاص دلالتها على التشذيب والتجريد من الشوك دون حاجة إلى التصريح بلفظه ، على حين لو قلنا : سدر مكسور أو مقطوع لا قتضى أن نقيدهما بالشوك صراحة ، وهو قول الطبرى والزمخشرى والقرطبى وأبى حيان فى تفسير الآية وقول (الراغب) فى الآية أى مكسور الشوك ، وقول ابن الأثير : أى الذى قطع شوكه (١) .

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ : الطلح هو : شجر الموز ، وقيل : هو شجر أم غيلان وله نوار كثير طيب الرائحة ، وعن السدى : شجر يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل ، والمنضود : الذى نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه فليست له ساق بارزة (٢) .

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ : ممتد منبسط لا يتقلص ولا يتفاوت كظل الدنيا ، وهو ظل حاصل من التفاف أشجار الجنة وكثرة أوراقها (٣) .

وقيل : ممدود أى : عند قيامه عمودا على الأرض كالظل بالليل وعلى هذا فالظل ليس ظل الأشجار بل ظل يخلقه الله تعالى (٤) .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وغيرهم عن أبى هريرة عن النبى – ﷺ – قال : إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق . دراسة قرآنية لغوية وبيانية .د/ عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) ص٤٥٥ الطبعة الثانية ١٩٨٧م مطبعة دار المعارف بمصر .

(٢) الكشاف ٥٤/٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩٩/٢٧ .

(٤) تفسير الرازى ١٦٥/٢٩ .

مائة عام لا يقطعها (١) ، اقرءوا إن شئتم ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ . ﴿مَّمْـدُودٍ﴾ . ﴿وَمَاء مَّسْكُوبٍ﴾ سكب الماء : صبه ، وأطلق هنا على جريه بقـوة يشـبه السكب وهو ماء أنهار الجنة ، وقيل : منساب حيث شاءوا لا يحتاجون فيـه إلى سانية ولارشاء ، وقيل : سائل على الأرض فى غير أخدود كأنه مثـل حال السابقين بأقصى ما يتصور لأهل المدن ، وقال أصحاب اليمين بأكمل ما يتصور لأهل البوادى إيذان بالتعاون بين الحالين .

﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أى بحسب الأجناس والأنواع ﴿لَّـا مَقْطُوعَـةٍ وَلَـا مَمْنُوعَةٍ﴾ أى لا تنقطع فى وقت من الأوقات كفواكه الدنيا ، ولا تمتنع عـن متناوليها بوجه من الوجوه لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا .

وقرئ بالرفع فى ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ على تقدير : وهناك ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أى : مرفوعة القـدر أو منضـدة مرتفعـة أو مرفوعة على الأسرة ، وقيل : الفرش النساء حيث يكنى بالفراش عن المرأة وارتفاعها كونهن على الأرائك ، قال تعالى :﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ﴾(٢) ويدل عليه قوله تعالى :﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء﴾ وعلـى التفسير الأول أضمر لهن لدلالة ذكر الفرش التى هى المضاجع عليهن دلالة بينة، والمعنى : ابتدأنا خلقهن ابتداء جديداً ، أو ابد عناهن مـن غيـر ولاد إبداء أو إعادة (٣) .

---

(١) متن صحيح البخارى ١٣٧/٤ ، وانظر سنن الترمذى المجلد الخـامس ص٧٤ ، دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨٣م . وانظر صحيح مسلم بشرح النووى حـ١٦٨/١٧ الطبعة الثانية ١٩٧٢ دار إحياء التراث ببيروت .

(٢) سورة يس الآية ٥٦ .

(٣) تفسير أبى السعود ١٩٣/٨ .

فإما أن يراد اللاتى ابتدئ إنشاؤهن أو اللاتى أعيد إنشاؤهن .

وعن رسول الله - ﷺ - أن أم سلمة - رضى الله عنها - سألته عن قول الله تعالى إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ فقال : يا أم سلمة إنهن اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد فى الاستواء كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا فلما سمعت عائشة رضى الله عنها ذلك من رسول الله - ﷺ - قالت : واوجعاه ، فقال رسول الله - ﷺ - ليس هناك وجع (١) .

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء . فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا . عُرُبًا أَتْرَابًا . لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ لما جرى ذكر الفرش وهى مما يعد للاتكاء والاضطجاع وقت الراحة فى المنزل يخطر بالبال بادئ ذى بدء مصاحبته الحور العين معهم فى تلك الفرش فيتشوق إلى وصفهن فكانت جملة ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء﴾ بيانا لأن الخاطر بمنزلة السؤال عن صفات الرفيقات .

فضمير المؤنث من ﴿ أَنشَأْنَاهُنَّ﴾ عائد إلى غير مذكور فى الكلام ولكنه ملحوظ فى الأفهام ، ومنه قوله تعالى : ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(٢) .

وهذا أحسن وجه فى تفسير الآية ، فيكون لفظ ﴿فُرُشٍ﴾ فى الآية مستعملا فى معنييه ، ويكون ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ مستعملا فى حقيقته ومجازه ، أى : الرفع الحسى والرفع المعنوى .

والإنشاء : الخلق والإيجاد ، فيشتمل ما كان موجودا وعدم ، فقد سمى الله الإعادة إنشاء فى قوله تعالى ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾(٣) فيدخل

---

(١) سنن الترمذى المجلد الخامس ص٧٦ .

(٢) سورة ص من الآية ٣٢ .

(٣) سورة العنكبوت من الآية ٢٠ .

نساء المؤمنين اللائى كن فى الدنيا أزواجا لمن صاروا إلى الجنة ، ويشمل إيجاد نساء أنفا يخلقن فى الجنة لنعيم أهلها .. وقوله ﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾ شامل للصنفين(١) .

لكننا نرى الإمام ابن القيم بعد حديثه عن الضمير فى أنشأناهن يقول : والصواب انها الفرش نفسها ودلت على النساء لأنها محلهن غالبا (٢) .

ثم يذكر آراء المفسرين فيقول : قال قتادة وسعيد بن جبير : خلقناهن خلقا جديدا ، وقال ابن عباس : يريد نساء الآدميات .

وقال الكلبى ومقاتل : يعنى نساء أهل الدنيا العجَّز الشمط ن يقول الله تعالى : خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول فى الدنيا .

يؤيد ذلك ما رواه يحيى الحمانى حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة أن رسول الله - ﷺ - دخل عليها وعندها عجوز ، فقال : من هذه ؟ فقالت : إحدى خالاتى ، فقال : أما إنه لا يدخل الجنة عجوز فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله ، فقال النبى ﷺ : إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء خلقا آخر يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا وأول من يكسى إبراهيم خليل الله ثم قرأ النبى - ﷺ - ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء﴾ ثم يقول ابن القيم : وذكر مقاتل قولا آخر ، وهو اختيار الزجاج : أنهن الحور العين اللاتى ذكرهن قبل ، أنشأهن الله عز وجل لأوليائه لم يقع عليهن ولادة ، والظاهر : أن المراد أنشأهن الله فى الجنة إنشاءً ويدل عليه وجوه :-

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠١/٢٧ .

(٢) التفسير القيم لابن القيم ٤٧٣ جمع محمد أويس الندوى تحقيق محمد حامد الفقى دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٨م .

أحدها : أنه قد قال فى حق السابقين ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ... إلى قوله كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ فذكر سدرهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين ، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم ، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهم ، خلقن فى الجنة .

الثانى : أنه سبحانه قال ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لاثان ، لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثانى يقيده بذلك كقوله : ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى﴾(١) وقوله : ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾(٢) .

الثالث : أن الخطاب بقوله ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ الخ للذكور والأناث والنشأة الثانية أيضاً عامة للنوعين ، وقوله ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء﴾ ظاهره اختصاص بهذا الإنشاء .

وتأمل تأكيده بالمصدر ، والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف ، بل يدل على مشاركتهن للحور العين فى هذه الصفات المذكورة ، فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات؛ بل هن أحق به منهن ، فالإنشاء واقع على الصفتين والله أعلم (٣) .

فابن القيم هنا يبسط الوصف على النوعين نساء الدنيا وقد أعيد بعد تفصيل وتوضيح وتدليل .

وقد وافقه فى ذلك صاحب التحرير والتنوير كما رأينا عند عرض رأيه

---

(١) سورة النجم الآية ٤٧ .

(٢) سورة الواقعة من الآية ٦٢ .

(٣) التفسير القيم ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(والعُرُب) جمع عَرُوب وهو اسم خاص بالمرأة وهى المتحببة إلى الرجل أو التى لها كيفية المتحببة وإن لم تقصد التحبب بأن تكثر الضحك بمرأى الرجل أو المزاح أو اللهو أو الخضوع فى القول أو اللثغ فى الكلام بدون علة أو التغزل فى الرجل والمساهلة فى مجالسته والتدلل ، وإظهار معاكسة أميال الرجل لعبا لاجدا ، وإظهار أذاه كذلك كالمغاضبة من غير غضب بل للتورك على الرجل . قال نبيه بن الحجاج :

تلك عريسى غضبى تريد زيالى ... ألبين أردت أم لدلال

والشاهد أم لدلال ، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾(١) .

وإنما فسروها بالمتحببة لأنهم لما رأوا هاته الأعمال تجلب محبة الرجل للمرأة ظنوا أن المرأة تفعلها لاكتساب محبة الرجل ولذلك فسر بعضهم العروب بأنها المغتلمة ، وإنما تلك حالة من أحوال بعض العروب . والمغتلمة : هى التى تشتهى زوجها .

والعروب : اسم لهذه المعانى مجتمعة أو متفرقة أجروه مجرى الأسماء الدالة على الأوصاف دون المشتقة من الأفعال ، فذلك لم يذكروا له فعلا ولا مصدراً وهو فى الأصل مأخوذ من الأعراب والتعريب وهو التكلم بالكلام الفحشى (٢) .

(أترابا) مستويات فى سن واحد وهو بنات ثلاث وثلاثين سنة وكذلك أزواجهن (٣) .

---

(١) الأحزاب من الآية ٣٢ .
(٢) التحرير والتنوير ٣٥١/٢٧ ، ٣٥٢ .
(٣) روح المعانى ١٤٢/١٤ .

ولم تستعمل كلمة (أترابا) فى القرآن إلا فى الإناث ، ويطلق التـــرب على من يولد هو وآخر فى وقت واحد ، سميا بذلك لمسهما التراب فى وقت واحد .

أخرج الترمذى عن معاذ مرفوعا : (يدخل أهل الجنة الجنة جرداً مرداً بيضا جعادا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين)([١]) .

وقد اختير هذا السن لأنه أتم السن ، والإنسان فيه أقوى حالا([٢]) .

﴿ لأَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ اللام هنا يتنازعها ﴿ أَنشَـــأْنَاهُنَّ﴾ و﴿جعلنـــاهن﴾ لإعادة توكيد الاعتناء بأصحاب اليمين المســتفاد مــن المقــام مــن قولــه ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أو أن اللام متعلقة بأترابا لأصــحاب اليمين ، وقيل : متعلقة بمحذوف هو صفة لأبكاراً ، أى : كائنات لأصــحاب اليمين ، أو خبر لمبتدأ محذوف أى : هن لأصحاب اليمين ، وقيــل : خبــر متقدم لقوله : ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وهو بعيد ، وإنما هو خبر لمبتدأ محــذوف ختمت به قصة أصحاب اليمين أى : هم أمة من الأولين وأمة من الآخرين .

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ خبر مبتدأ أى هم ثلة أو خبر ثان لهم المقدر مبتدأ مع ﴿فِي سِدْرٍ﴾ أو ﴿لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ ، أو مبتــدأ خبــره محذوف أى منهم ، أو مبتدأ خبره الجار والمجرور قبله ، احتمالات اعترض على الأخير منها بأن المعنى عليه غير ظاهر لاطلاوة فيه ، وجعــل الــلام بمعنى من كما فى قوله .

([١]) سنن الترمذى المجلد الخامس ص٨٨ .

([٢]) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ص١٨٣ .

ونحن لكم يوم القيامة أفضل

لا يخفى حاله – والأولون والآخرون – المتقدمون والمتأخرون إما من الأمم وهذه الأمة ، أو من هذه الأمة فقط على ما تقدم .

وإنما أخر هذا عن ذكر مالهم من النعيم للإشعار بأن عزة هذا الصنف وقلته دون عزة صنف السابقين ، فالسابقون أعز ، وهذه الدلالة من مستتبعات التراكيب المستفادة من ترتيب نظم الكلام (١) .

خصائص النظم والأسرار البلاغية :-

إن أول ما يلقانا من البلاغة فى هذه الآيات الكريمة قوله تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ فهى جملة استفهامية مشعرة بتفخيمهم والتعجيب من حالهم وقوله تعالى﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ جملة استئنافية لبيان ما أبهم فى قوله تعالى ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ من علو الشأن ، وهذا الاستئناف البيانى هو ما يسمى فى البلاغة بشبه كمال الاتصال ، فهذه الجملة ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ فصلت عما قبلها ﴿مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾ لأنها وقعت جوابا لسؤال اقتضته الجملة الأولى وكأن سائلا قال : ما شأن أصحاب اليمين ؟ أو ما جزاؤهم ؟ فقيل : فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ...

وأيضاً فى قوله ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ الظرفية مجازية للمبالغة فى تمكنهم من التنعم والانتفاع بما ذكر . وكذلك نلحظ كناية فى قوله ﴿ مَّخْضُود﴾ لأن معنى خضد الغصن إذا ثناه وهو رطب ، فمخضود مثنى الأغصان كنى به عن كثير الحمل . وهو كناية عن صفة .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٣/٢٧ .

كما أن النعم المذكورة لأصحاب اليمين وهى متتالية من مراعاة النظير لأنها يتنعم بها فى الجنة ، وكل هذه النعم الواقعة على صفة جمل معطوفة على بعضها تعتبر من باب الوصل لاتفاقها فى الخبرية .

وفى قوله عن الفاكهة ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ وصف بانتفاء ضد المطلوب ، إذ المطلوب أنها دائمة مبذولة لهم ، والنفى هنا أوقع من الإثبات لأنه بمنزلة وصف وتوكيده ، وهم لا يصفون بالنفى إلا مع التكرير بالعطف كقوله تعالى ﴿زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾(١) ، ثم تارة يقصد به إثبات حالة وسطى بين حالى الوصفين المنفيين كما فى قوله تعالى﴿زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ وهذا هو الغالب وتارة يقصد به نفى الحالين لإثبات ضديهما كما فى قوله تعالى﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ ، وجمع بين الوصفين لأن فاكهة الدنيا لا تخلو من أحد ضدى هذين الوصفين فإن أصحابها يمنعونها فإن لم يمنعوها فإن لها إبانا تنقطع فيه .

وقدم نفى كونها مقطوعة على كونها ممنوعة لأن القطع يكون للموجود، والمنع يكون بعد الوجود لأنها توجد أولا ثم تمنع ، فإن لم تكن موجودة فلا تكون ممنوعة (٢) .

وقوله تعالى﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ يجوز أن يراد بالفرش الأسرة من تسميته الشئ باسم ما يحل فيه فهو مجاز مرسل علاقته المحلية .

وإذا أريد بالفرش النساء كان قوله ﴿وَفُرُشٍ﴾ كناية عنهن فهى كناية عن موصوف لأن الفرش يكنى بها عن النسوة تستلزم الفراش غالبا .

---

(١) سورة النور من الآية ٣٥ .

(٢) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ص١٨٥ .

وهناك لطيفة فى تقديم قوله تعالى﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ على السرر والفاكهة والحور عند ذكر السابقين ، وهنا أخر قوله ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ بعد ذكر هذه النعم عند ذكر أصحاب اليمين ، وذلك لأن السابقين لا يلتفتون إلى الحور العين والمأكول والمشروب ، ونعم الجنة تتشرف بهم لأنهم مقربون حسا .

أما أصحاب اليمين فذكرهم أولا ثم ذكر مكانهم ، فكأنه قال لأهل الجنة هؤلاء واردون عليهم ، وهذا يعنى أن عزة هذا الصنف دون عزة صنف السابقين .

كما أن الله سبحانه وتعالى لم يقل فى حق أصحاب اليمين ﴿جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كما قاله فى حق السابقين إشارة إلى أن الفضل فى حقهم متمحض كأن عملهم لقصوره عن عمل السابقين لم يعتبر اعتباره .

المعنى العام للآيات :-

يذكر الله تعالى القسم الثانى وهم أصحاب اليمين فيقول : وأصحاب اليمين أى الذين يتسلمون صحائفهم بأيمانهم ما أصحاب اليمين أى وما أدراك ما هم ؟ فهم فى عيشه راضية يتنعمون فى خيرات الجنة فهم فى سدر لا شوك له بل له ثمار نضيجة لذيذة الطعم ، وشجر موز ممتلئ بالثمار من أعلاه إلى أسفله ، فهو يشبه طلح الدنيا فى الشكل ولكن له ثمر أحلى من العسل ، كما أنهم يعيشون فى ظل ممتد منبسط لا يتقلص وهو حاصل من التفاف أشجار الجنة وكثرة أوراقها وأيضاً إلى جوارهم الماء المسكوب أى المصبوب أينما شاءوا وكيفما أرادوا بلا تعب ، وهذا النعيم إلى جواره فواكه كثيرة بحسب الأنواع والأجناس لا مقطوعة فى وقت من الأوقات كفواكه

الدنيا ، ولاممنوعة عن متناوليها بوجه من الوجوه لا يحظر عليها كما يحظر على بساتين الدنيا .

وإلى جانب هذا كله ما يكمل اللذة والمتعة فهناك فـــرش مرفوعـــة أى أسرة رفيعة القدر ، أو منضدة مرتفعة ، وقيل : الفرش هى النســـاء حيـــث يكنى بالفراش عن المرأة وارتفاعها كونهن على الأرائك قال تعـــالى ﴿هُـــمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِؤُونَ ﴾ .

ولما جرى ذكر الفرش وهى ما يعد للاتكاء والاضطجاع وقت الراحة بالمنزل يخطر بالبال مصاحبة الحور العين فى تلك الفرش فيتشـــوف إلـــى وصفهن ، فكان قوله تعالى بعد ذلك ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاء﴾ بيانا لأن الخـــاطر بمنزلة السؤال عن صفات الرفيقات فأنشأناهن تحتمل تفسيرين الأول : ابتدأنا خلقهن ابتداءً جديداً والثانى : أبدعناهن من غير ولاد إبداءً أو إعادة فجعلناهن ابكاراً وهذا يشمل النوعين السابقين ، فكلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً ، وهن أيضاً عربا : أى : متحببات إلى أزواجهن حسنات التبعل ، أترابا : أى مستويات فى السن بنات ثلاث وثلاثين سنة ، وكذا أزواجهن ، فهن فى ســـن متساوية لا تفاوت بينهن أى فى سن الشباب المستوى فتكون محاسنهن غير متفاوتة فى جميع جهات الحسن ، وهذا كله لأصحاب اليمين الذين هم أمة من الأولين وأمة من الآخرين ، وهم جميعا من أمة سيدنا محمد - ﷺ - كما ذكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - فى هذه الآية قال : قال رسول الله - ﷺ - هم جميعا من أمتى وعلينا أن نعلم أن مـــا أعطـــى لأصحاب اليمين ليس مخالفا لما أعطى للسابقين ولا أن ما أعطى للســـابقين مخالف لما أعطى لأصحاب اليمين ، فإن الظل والماء المســـكوب ، وكـــون أزواجهم عربا أترابا لم يذكر مثله للسابقين وهو ثابت لهم لا محالـــة ، إذ لا

يقصرون عن أصحاب اليمين ، وكذلك ما ذكر للسابقين من الولدان وأكوابهم وأباريقهم ولحم الطير وكون أزواجهم حورا عينا ، وأنهم لا يسمعون إلا قيلا سلاما سلاما . لم يذكر مثله لأصحاب اليمين ، مع أن لأهل الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . وقد ذكر في آيات كثيرة أنهم أعطوا أشياء لم يذكر إعطاؤها لهم في هذه الآية مثل قوله ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾(١) فليس المقصود توزيع النعيم ولا قصره ، ولكن المقصود تعداده والتشويق إليه مع أنه قد علم أن السابقين أعلى مقاما من أصحاب اليمين بمقتضى السياق ، وقد أشار إلى تفاوت المقامين أنه ذكر في نعيم السابقين أنه جزاء بما كانوا يعملون ، ولم يذكر مثله في نعيم أصحاب اليمين ، وجماع الغرض من ذلك التنويه بكلا الفريقين ، ونسأل الله أن يجعلنا من السابقين أصحاب اليمين إنه سميع قريب مجيب .

---

(١) سورة يونس من الآية ١٠ .

الموضوع الخامس

(عقوبة القسم الثالث وهم أصحاب الشمال)

قال الله تعالى :﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ{٤١} فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ{٤٢} وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ{٤٣} لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ{٤٤} إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ{٤٥} وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ{٤٦} وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ{٤٧} أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ{٤٨} قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ{٤٩} لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ{٥٠} ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ{٥١} لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ{٥٢} فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ{٥٣} فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ{٥٤} فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ{٥٥} هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ{٥٦} ﴾ .(الآيات من ٤١ – ٥٦)

الدلالات اللغوية والإعراب :-

شرع ربنا فى تفصيل أحوالهم التى أشير عند التنويع إلى هولها وفظاعتها بعد تفصيل حسن حال أصحاب اليمين .

فأصحاب الشمال : هم الذين يأخذون كتبهم بشمائلهم ، وهم المعبر عنهم بأصحاب المشأمة عند تقسيم الناس إلى أزواج ثلاثة ، وقد بين الله حالهم فما قيل من إعراب فى قوله وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، يقال مثله هنا .

أما ﴿ السَمُومِ﴾ فهو الريح الحارة التى تؤثر تأثير السم ، وقيل : حر نار ينفذ فى المسام ، وقيل : الريح الشديد الحرارة الذى لا بلل معه وكأنه مأخوذ من السم ، وهو ما يهلك إذا لاقى البدن ([1]) .

([1]) التحرير والتنوير ٣٠٤/٢٧ .

﴿ الْحَمِيمِ﴾ الماء الشديد الحرارة ، وهو فعيل بمعنى فاعل من حمم الماء بكسر الميم أو بمعنى مفعول من حمَّ الماءَ إذ سخنه .

ويأتى فعول لما تكرر منه الشئ ، والريح لما كانت كثيرة الهبوب تهب شيئا بعد شئ خص السموم بالفعول ، والماء الحار لما كان لا يفهم منه الورود شيئا بعد شئ لم يقل فيه حموم .

﴿واليحموم﴾ هو الأسود البهيم فقوله : ظل من يحموم أى : ظل من دخان شديد السواد ، ويراد باليحموم عدة أشياء :

أنه اسم من أسماء جهنم ، أو أنه الدخان ، أو انه الظلمة ، وأصله من الحُمَم بضم الحاء وفتح الميم ، وهو الفحم ، فكأنه لسواده فحم فسموه باسم مشتق منه . وقيل : هو سرادق النار المحيط بأهلها يرتفع من كل ناحية حتى يظلهم ، وقيل : هو جبل أسود فى النار .

وعلى تفسير اليحموم بأنه اسم لجهنم فإن (من) لابتداء الغاية كما تقول.

جاءنى نسيم من الجنة ، وعلى أنه الدخان تكون (من) بيانية كقولنا : خاتم من فضة وهو كذلك على أنه الظلمة (١) .

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ صفتان للظل وتقديم الصفة الجار والمجرور من يحموم على الصفة المفردة جائز أى : لا بارد كسائر الظلال ولا نافع لمن يأوى إليه من أذى الحر ، ونفى ذلك ليمحق توهم ما فى الظل من الاسترواح إليه .

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ تعليل لا بتلائهم بما ذكر من العذاب والمترف هنا هو المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع ، وهم قد عذبوا لأنهم

---

(١) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ص١٩٨ ، وانظر روح المعانى ١٤٢/١٤ .

اتبعوا هوى أنفسهم وليس لهم رادع يردعهم عن مخالفة أوامر الله وارتكاب نواهيه وقيل : المترف هو العاتى المستكبر وهم قد عذبوا لأنهم كانوا مستكبرين عن قبول ما جاءتهم به الرسل من الإيمان بالله عز وجل ، وقيل : هو الذى أترفته النعمة أى : أبطرته وأطغته ، وقيل : هو المنهمك فى الشهوات .

وإنما جعل أهل الشمال مترفين لأنهم لا يخلو واحد منهم عن ترف ولو فى بعض أحواله وأزمانه من نعم الأكل والشرب والنساء والخمر ، وكل ذلك جدير بالشكر لواهبه وهم قد لابسوا ذلك بالإشراك فى جميع أحوالهم ، أو لأنهم لما قصروا أنظارهم على التفكير فى العيشة العاجلة صرفهم ذلك عن النظر والاستدلال على صحة ما يدعوهم إليه الرسول - ﷺ - فهذا وجه الترف فى الدنيا من أسباب جزائهم الجزاء المذكور .

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الحنث : الذنب والمعصية وما يتخرج منه ويجوز أن يكون حنث اليمين فإنهم كانوا يقسمون على أن لا بعث .

كما قال تعالى عنهم :﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللّهُ مَن يَمُوتُ﴾(١) .

العظيم : القوى فى نوعه أى الذنب الشديد والحنث العظيم هو الإشراك بالله ، ومعنى يصرون : يثبتون عليه لا يقبلون زحزحة عنه ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا ...﴾ أنهم كانوا يعتقدون استحالة البعث بعد ذلك فيقولون : أئذا كان بعض أجزائنا من اللحم والجلد ونحوهما ترابا وبعضها عظاما نخرة تقولون سنبعث ؟ وإذا متمحضة للظرفية ، والعامل فيها ما دل عليه قوله ﴿أَئِنَّا

---

(١) سورة النحل من الآية ٣٨ .

لَمَبْعُوثُونَ﴾ لا مبعوثون نفسه لتعدد ما يمنع من عمل ما بعده فيما قبله – وهو نبعث – وهو المرجع للإنكار وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت وإن كان البدن على حاله لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه فى حالة منافية له بالكلية ، وهذا كالاستدلال على مايزعمونه (١) .

﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ دخلت همزه الاستفهام على حرف العطف لصدارة الاستفهام ، وهنا عطفت استفهاما على استفهام ، وأعيد الاستفهام توكيدا للاستبعاد .

وجاز أن يكون (آباؤنا) مبتدأ وخبره محذوف دل عليه ما قبل أى : (مبعوثون) ، والجملة عطف على الجملة السابقة ، والمعنى : أيبعث أيضاً آباؤنا ؟ على زيادة الاستبعاد يعنون أنهم أقدم فبعثهم أبعد وأبطل .

﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ رد من الله على إنكارهم الحق فقال لهم إن الكل سيجمع الأولون من الأمم الذين أنتم من جملتهم وآباؤكم ، كل أولئك مجموعون لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامة ، وإضافته إلى يوم بيانية ، وإلى للغاية والانتهاء .

وضمن (مجموعون) معنى (مسوقون) فتعلق به مجروره بحرف (إلى) للانتهاء وإلا فإن ظاهر (مجموعون) أن يعدى بحرف (فى) .

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ هذا من جملة ما أمر الله رسوله – ﷺ – أن يقوله لهم ، و(ثم) للترتيب الرتبى ، وهذا التراخى الرتبى مثل الذى فى قوله تعالى :﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

---

(١) روح المعانى ١٤/١٤٤ ، ١٤٥ .

يَسِيرٌ﴾(١) بمنزلة الاعتراض بين جملة ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ وجملة ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾.

﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ أى آكلون بعد البعث ودخول جهنم من شجر من زقوم ، فمن الأولى للغاية ، والثانية لبيان الشجر ، وجاز أن تكون الأولى تبعيضية ، والثانية على حالها ، وجاز كون (من زقوم) بدلا من قوله (من شجر) فمن تحتمل الوجهين .

والزقوم : شجر له ثمر مر كريه ، يكره اهل النار على تناوله فهم يتزقمونه هو نزلهم وضيافتهم(٢) .

وقيل : هو شجر من أخبث الشجر يكون بتهامة وبالبلاد المجدبة المجاورة للصحراء كريهة الرائحة صغيرة الورق مسمومة ذات لبن إذا أصاب جلد الإنسان تورم ومات منه فى الغالب ، قاله قطرب وأبو حنيفة(٣) .

وهذه الشجرة عجيبة كما قال تعالى فى سورة الصافات ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ{٦٤} طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾(٤) فهى تدل على عجيب قدرة الله تعالى أن جعل من النار شجرة وهى نارية لا محالة صور الله فى النار شجرة من النار ، وتقريب ذلك ما يصور فى الشماريخ النارية من صور ذات ألوان كالنخيل ونحوه وجعل لها طلعا أى ثمرا وأطلق

---

(١) سورة التغابن من الآية ٧ .

(٢) القرآن الكريم وبهامشه زبدة التفسير من فتح القدير ص ٧١٥ مختصر من تفسير الإمام الشوكانى المسمى (فتح القدير الجامع بين فنى الدراية والرواية من علم التفسير) محمد سليمان عبد الله الأشقر – الطبعة الثانية ١٩٨٨م الكويت .

(٣) التحرير والتنوير ١٢٢/٢٣ .

(٤) سورة الصافات آيتا ٦٤ ، ٦٥ .

عليه اسم الطلع على وجه الاستعارة تشبيها له بطلع النخلة لأن اسم الطلع خاص بالنخيل وطلع شجرة الزقوم غير معروف فوصف للناس فظيعا بشعا ، وشبهت بشاعته ببشاعة رءوس الشياطين ، وهذا التشبيه من تشبيه المحسوس المتخيل بالمعقول كتشبيه الإيمان بالحياة في قوله تعالى ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾(١) والمقصود منه تقريب حال المشبه ، فلا يمتنع كون المشبه به غير معروف ، ولا كون المشبه كذلك (٢) .

﴿فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ تفظيع لحالهم في جزائهم على ما كانوا عليه في الدنيا من الترف بملء بطونهم بالطعام والشراب ملئا أنساهم إقبالهم عليه وشربهم من التفكر في مصيرهم .

﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ أي أن مرارة الزقوم وحرارته مع عدم استساغته في الأكل ولكنهم مكرهون على أكله وملء بطونهم منه جعلهم يطلبون الماء ليبتلعوا به الزقوم ولكن هيهات فالماء هو الحميم وهو الماء المغلى الشديد الحرارة .

وقد زيد تفظيعا بالتشبيه في قوله ﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ والهيم : جمع أهيم وهو البعير الذي أصابه الهيام بضم الهاء ، وهو داء يصيب الإبل يورثها حمى في الأمعاء فلا تزال تشرب ولا تروى ، أي : شاربون من الحميم شربا لا ينقطع فهو مستمرة آلامه .

ومعنى ﴿ شَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ يجوز أن يكون (على) فيه للاستعلاء أي شاربون فوقه الحميم ، ويجوز مع ذلك استفادة معنى (مع) من حرف (على) تعجيبا من فظاعة حالهم ، أي : يشربون هذا الماء المحرق مع ما طعموه من

---

(١) سورة يس من الآية ٧٠ .

(٢) التحرير والتنوير ١٢٤/٢٣ .

شجر الزقوم الموصوف فى آية أخرى بأنها ﴿كَغَلْيِ الْحَمِيمِ خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاء الْجَحِيمِ﴾(١) فيفيد أنهم يتجر عونه ولا يستطيعون امتناعا .

وتأنيث ضمير الشجر فى قوله ﴿فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾ لأن ضمائر الجمع لغير العاقل تأتى مؤنثه غالبا .

وأما ضمير (عليه) فى قوله ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ فإنما جاء بصيغة المذكر لأنه عائد على الأكل المستفاد من قوله (لآكلون)(٢) .

والفاء فى قوله ﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾ عطف على (لآكلون) لإفادة تعقيب أكل الزقوم بشرب الهيم دون فترة ولا استراحة .

﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ الاشارة فى قوله (هَذَا) إلى ما ذكر من أكل الزقوم وشرب الهيم والنزل بضم النون والزاى أو سكون الزاى ما يقدم للضيف من طعام ، جئ به على سبيل التهكم بهم .

خصائص النظم والأسرار البلاغية :-

قوله تعالى ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ الاستفهام هنا لقصد التعجيب من حالهم أى : أى شئ هم فيه من الهوان والعذاب ؟ والمراد تعظيم مصابهم وقد عطفت هذه القصة على سابقتها بالواو للتوسط بين الكمالين حيث اتفقت الجمل خبرا لفظا ومعنى .

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ التنوين هنا للتعظيم ، ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ وكما قلنا اليحموم هو الدخان الأسود وسماه ظلا على التشبيه التهكمى ، حيث إن

---

(١) سورة الدخان آيتا ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) التحرير والتنوير ٣١٠/٢٧ .

الدخان هنا سبب فى الإيذاء ، أما الظل الحقيقى فهو سبب للراحة والتنعم(١) .

و(من) بيانية إذ الظل هنا أريد به نفس اليحموم ، أى : الدخان الأسود.

ووصف (ظل) بأنه (من يحموم) للإشعار بأنه ظل دخان لهب جنهم ، والدخان الكثيف له ظل لأنه بكثافته يحجب ضوء الشمس ، وإنما ذكر من الدخان ظله لمقابلته بالظل الممدود المعدّ لأصحاب اليمين فى قوله ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أى : لا ظل لأصحاب الشمال سوى ظل اليحموم ، وهذا من قبيل التهكم .

ولتحقيق معنى التهكم وصف هذا الظل بما يفيد نفى البرد عنه ونفى الكرم فقال ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ فبرد الظل ما يحصل فى مكانه من دفع حرارة الشمس وكرم الظل ما فيه من الصفات الحسنة فى الظلال مثل سلامته من هبوب السموم عليه وسلامة الموضع الذى يظله من الحشرات والأوساخ ، وسلامة أرضه من الحجارة ونحو ذلك ، إذ الكريم من كل نوع هو الجامع لأكثر محاسن نوعه فوصف ظل اليحموم بوصف خاص وهو انتفاء البرودة عنه وأتبع بوصف عام وهو انتفاء كرامة الظل عنه ، ففى الصفة بنفى محاسن الظلال تذكير للسامعين بما حرم منه أصحاب الشمال عسى أن يحذروا أسباب الوقوع فى الحرمان ، ولإفادة هذا التذكير عدل عن وصف الظل بالحرارة والمضرة إلى وصفه بنفى البرد ونفى الكرم (٢) .

---

(١) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ٢٠٤ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠٤/٢٧ ، ٣٠٥ .

والمعنى : أنه ظل حار ضار إلا أن للنفى شأنا ليس للإثبات ومن ذلك جاء التهكم والتعريض بأن الذى يستأهل الظل الذى فيه برد وإكرام غير هؤلاء فيكون أشجى لحلوقهم وأشد لتحسرهم (١) .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ تعليل لا بتلائهم بما ذكر من العذاب ، وسلك هذا المسلك فى تعليل الابتداءَ بالعذاب اهتماما بدفع توهم الظلم فى التعذيب ، ولما كان إيصال الثواب مما ليس فيه توهم نقص أصلا لم يسلك فيه نحو هذا ، والمعنى : أنهم عذبوا لأنهم كانوا قبل ما ذكر من العذاب فى الدنيا متبعين هوى أنفسهم وليس لهم رادع منها يردعهم عن مخالفة أوامره عز وجل وارتكاب نواهيه سبحانه (٢) .

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ وتقييد (الحنث) بـ(العظيم) للمبالغة فى وصفه بالعظم ، لأن الحنث كما ورد عن كثير من المفسرين هو الشرك أو هو القسم على إنكار البعث فيكون شركا كذلك .

وصيغة المضارع فى (يصرون) و(يقولون) تفيد تكرر الإصرار والقول منهم ، وذكر فعل (كانوا) لإفادة أن ذلك ديدنهم(٣) .

والاستفهام فى قوله ﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ إنكارى كناية عن الاستبعاد ، وتقييده بالوقت المذكور ليس لتخصيص إنكاره به فإنهم منكرون للإحياء بعد الموت ، وإن كان البدن على حاله ، بل لتقوية الإنكار للبعث بتوجيهه إليه فى حالة منافية له بالكلية ، وتكرير الهمزة لتأكيد النكير ، وتحلية الجملة بإن لتأكيد الإنكار لا لإنكار التوكيد كما عسى يتوهم

---

(١) روح المعانى ١٤٣/١٤ .
(٢) المرجع نفسه ١٤٤.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠٧/٢٧ .

من ظاهر النظم فإن تقديم الهمزة لاقتضائها الصدارة على رأى الجمهور ، فإن المعنى عندهم تعقيب الإنكار لا إنكار التعقيب كما هو المشهور ، وليس مدار إنكارهم كونهم ثابتين فى المبعوثية بالفعل فى حال كونهم ترابا وعظاما، بل كونهم بعرضية ذلك واستعدادهم له ومرجعه إلى إنكار البعث بعد تلك الحالة ، وفيه من الدلالة على غلوهم فى الكفر وتماديهم فى الضلال ما لا مزيد عليه ([1]) .

وأعيد الاستفهام فهى قوله ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ توكيدا للاستبعاد ولتأكيد النكير ، والواو للعطف على المستكن فى (لمبعوثون) ، وحسن ذلك الفصل بالهمزة يعنون أن بعث آبائهم الأولين أبعد من الوقوع .

قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ قدم الأولين للمبالغة فى الرد حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم مع مراعاة الترتيب الوجودى .

وتأكيد الخبر بـ(إن) واللام لرد إنكارهم ، وبين قوله ﴿ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ طباق وإضافة (ميقات) إلى (يوم) بيانية بمعنى من ، كخاتم فضة([2]) و(إلى) للغاية والانتهاء ، وقيل : المعنى : لمجموعون منتهين إلى ذلك اليوم ، وقيل : ضمن معنى السوق فلذا تعدى بـ(إلى) وإلا فظاهر (مجموعون) أن يعدى بحرف (فى) وأفاد تعليق مجروره به بواسطة (إلى) أنه مسير إليه حتى ينتهى إليه فدل على مكان ، وهذا من الإيجاز وقيل إن إضافة (ميقات) إلى (يوم معلوم) لأن التجمع واقع فى ذلك اليوم وإذ كان التجمع الواقع فى اليوم واقعا فى ذلك الميقات كان بين الميقات واليوم ملابسة

([1]) أبو السعود ١٩٥/٨ .

([2]) روح المعانى ١٤٥/١٤ .

صححت إضافة الميقات إليه لأدنى ملابسة وهذا أدق من جعل الإضافة بيانية، وهذا تعريض بالوعيد بما يلقونه فى ذلك اليوم الذى جحدوه (١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ ثم للترتيب الرتبى فإن فى التصريح بتفصيل جزائهم فى ذلك اليوم ما هو أعظم وقعا فى النفوس من التعريض الإجمالى بالوعيد الذى استفيد من قوله ﴿إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ﴾ .

وهذا التراخى الرتبى بمنزلة الاعتراض بين جملة ﴿ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ وبين جملة ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ .

والخطاب موجه للمقول إليهم ما أمر الرسول - ﷺ - بأن يقوله لهم ، فليس فى هذا الخطاب التفات كما قد يتوهم .

وقدم وصف (الضالون) على وصف (المكذبون) مراعاة لترتيب الحصول ، لأنهم ضلوا عن الحق فكذبوا بالبعث ، ليحذروا من الضلال ويتدبروا فى دلائل البعث ، وذلك مقتضى خطابهم بهذا الإنذار بالعقاب المتوقع .

قوله ﴿فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ . فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ فالمقصود من ملء البطون المبالغة والتفظيع لحالهم فى جزائهم على ما كانوا عليه من الترف فى الدنيا بملء بطونهم بالطعام والشراب ملئا أنساهم إقبالهم عليه وشربهم من التفكر فى مصيرهم .

﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ﴾ عطف على (لآكلون) ليفيد أن الشرب عقب الأكل دون فترة ولا استراحة .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠٩/٢٧ .

وإعادة فشاربون فى قوله ﴿ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ توكيد لفظى وفائدته زيادة تقرير ما فى هذا الشرب من الأعجوبة وهى أنه مع كراهته يزدادون منه كما ترى الأهيم ، فيزيدهم تقطيعاً لأمعائهم لإفادة التعجيب من حالهم تعجيبا ثانيا بعد الأول فإن كونهم شاربين للحميم على ما هو عليه من تناهى الحرارة أمر عجيب ، وشربهم له كما تشرب الإبل الهيم فى الإكثار أمر عجيب أيضاً ، فكانتا صفتين مختلفتين .

والإبل من الحيوانات الملازمة للبيئة العربية والتى لها تأثير فى حياة أهلها .

فالعرب بحكم معيشتهم فى بيئة صحراوية يعتمدون على الإبل فى أهم شئون حياتهم ولذلك فهم بحكم ملازمتهم للإبل يملكون الخبرة الكاملة فى كل ما يتعلق بالإبل ، فيعرفون أنواعها وطبيعة كل نوع ومزاياه ، ويعرفون حياتها ولوازمها فى المأكل والمشرب والقدرة على التحمل والصبر على العطش ، ويعرفون أمراضها وطبيعة كل مرض وطريقة علاجه ، بل وطرق الوقاية منه فى كثير من الأحيان .

وسخرية القرآن الكريم قد أشارت إلى خبرتهم القوية فى أمراض الإبل، هذه الخبرة التى تعتبر من خصائصهم بحكم البيئة ، ومن ذلك الحديث عن أحد هذه الأمراض وهو الهيام ، فالهيام مرض يصيب الإبل فيظمأ الجمل أو الناقة المصاب بهذا الداء ، فلا يروى من الماء مهما شرب يقول ذو الرمة:

وقد زودت مى على النأى قبلة ** علاقات حاجات طويل سقامها

فأصبحت كالهيماء لا الماء مبرد ** صداها ولا يقضى عليها هيامها

فالشاعر يعرف أن الهيام يجعل الناقة فى حالين : أحدهما : أن الماء لا يرويها مهما شربت ، والثانى : أن الهيام غير قاتل لها بل تعيش بـــه أمـــدا طويلا .

وسخرية القرآن الكريم تجعل هذين الوصفين منطبقين على أهل جهنم تشبيها لهم بالإبل ، وتأكيدا للتشبيه تجعلهم يأكلون فى النار من الشجر كمـــا تأكل الإبل من الشجر ، ولكن شجر جهنم يختلف عن شجر الدنيا وهم أيضاً يأكلون من هذا الشجر الشنيع فيملأون بطونهم كما تأكل الإبل مـــن شـــجر المراعى فتملأ بطونها ، وحين تمتلئ بطونهم من شجر النار يحتاجون إلـــى ماء كثير ليطفئوا تأجج النار فى أحشائهم ، كما تحتاج الناقة الهيماء أو الجمل الأهيم إلى ماء كثير ، ولكنهم يشربون من الماء الحميم وهو نـــار أيضـــاً ، ويظلون يشربون فلا يرتوون كما لا ترتوى الهيم (١) .

﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ اعتراض بين جمل الخطـــاب موجـــه إلـــى السامعين غيرهم فليس فى ضمير الغيبة التفات .

والنزل ما يقدم للضيف من طعام ، وهو هنا تشبيه تهكمى كالاستعارة التهكمية فى قول عمرو بن كلثوم .

نزلتم منزل الأضـــياف منـــا ** فعجلنـــا القـــرى أن تشـــتمونا

قرينـــاكم فعجلنـــا قـــراكم ** قبيـــل الصـــبح مـــرداة طحونـــا

ويوم الدين هو يوم الجزاء ، أى هذا جزاؤهم على أعمالهم نظير قوله آنفا ﴿جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وجعل يوم الدين وقتا لنزلهم مؤذن بأن ذلـــك

---

(١) أسلوب السخرية فى القرآن الكريم د/ عبـــد الحلـــيم حفنـــى ١٤٦ ، ١٤٧ ، الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م .

الذى عبر عنه بالنزل جزاء على أعمالهم ، وهذا تجريد للتشبيه التهكمى وهو قرينة على التهكم .

وإذا كان ذلك نزلهم وهو ما يقدم للنازل مما حضر فما ظنك بحالهم بعدما استقر لهم القرار ، واطمأنت لهم الدار فى النار (١) .

فالقرآن الكريم يسخر من أعدائه ، فكونه يجعل العذاب الأليم الذى يصطلونه تكريما وضيافة لهم سخرية موجعة ، ولكن من زواية الإيجاز نجد أن لفظا واحدا هو (نزلهم) يثير فى النفس كثيرا من المعانى والمفارقات الطريفة الضاحكة ، حين تتصور ما يعانونه فى جهنم ثم نتصور سخرية هذا اللفظ الذى يحول ساخرا كل هذا العذاب إلى نعيم وإكرام (٢) .

ونرى الجاحظ يقول : والعذاب لا يكون نزلا ، ولكن لما قام العذاب لهم فى موضع النعيم لغيرهم سمى باسمه (٣) .

المعنى العام للآيات :-

يحذر الله تعالى العصاة من أعمالهم السيئة التى تئول بهم إلى أخذ كتابهم بشمالهم وحينئذ يقع عليهم العقاب المقدر لهم فيقول :

وأصحاب الشمال – أى الذين يأخذون كتابهم بشمالهم وما أدراك ما أصحاب الشمال باستفهام مسوق للتعجيب من حالهم بمعنى أى شيء هم فيه من الهوان والعذاب ؟ فهم فى سموم وهو الهواء الحار الذى يهلك البدن ، وحميم وهو الماء المغلى فهذا هو حالهم وليت العذاب، وقف عند هذا الحد بل هناك ظل من يحموم أى ظل من دخان شديد السواد وهذا الظل لا ينفع

---

(١) تفسير أبى السعود ١٩٦/٨ ، وروح المعانى ١٤٦/١٤ ، التحرير والتنوير ٣١٢/٢٧.
(٢) أسلوب السخرية فى القرآن الكريم ص ١١٧ .
(٣) البيان والتبيين ١٥٣/١ .

صاحبه فهو ليس كسائر الظلال يحمى من الحرارة بل هو من دخان أسود لا بارد مثل الظل العادى ولا كريم أى لا ينفع من يأوى إليه ونفى ذلك بقوله لا بارد ولا كريم ليمحق توهم ما فى الظل من الاسترواح إليه ، فهو كما قال تعالى : فى آيات أخرى ﴿انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ{٢٩} انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ{٣٠} لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ{٣١} إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ{٣٢} كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ{٣٣} وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{٣٤}﴾(١).

فالله تعالى يقول لهم : انطلقوا إلى ما كذبتم به من العذاب إلى ظل وهو دخان جنهم يتشعب لعظمه إلى ثلاث شعب ، وقيل : يخرج لسان من النار فيحيط بالكفار كالسرادق ويتشعب من دخانها ثلاث شعب فتظلهم حتى يفرغ من حسابهم – والمؤمنون فى ظل العرش – وهذا الظل لا ظليل تهكم بهم وتعريض بأن ظلهم غير ظل المؤمنين ، ولا يغنى عنهم من حر اللهب شيئا إن جهنم ترمى بشرر عظيم كالقصر فى عظمه ، وقيل هو الغليظ من الشجر الواحدة قصرة ، نحو جمرة وجمر كأنه جمالة صفر ، جمالة جمع جمل شبهت بالقصور ثم بالجمال لبيان التشبيه وصفر لإرادة الجنس ، وقيل : صفر سود تضرب إلى الصفرة وبعد ذلك يقع الهلاك للمكذبين بيوم الدين .

وهذا الذى يقع بهم من العذاب لأنهم كانوا فى الدنيا مترفين منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشارب والمساكن الطيبة والمقامات الكريمة منهمكين فى الشهوات فلا جرم عذبوا بنقائضها ، وكانوا أيضاً يصرون على الحنث العظيم أى : الذنب العظيم الذى هو الشرك ، وقيل : هو اليمين الغموس لأنهم كانوا يحلفون أنهم لا يبعثون .

---

(١) سورة المرسلات الآيات ٢٩ – ٣٤ .

وكانوا لكفرهم وعنادهم وعتوهم يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أننا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون ، هذا القول منهم على سبيل الإنكار لا يحدث أن نبعث بعد أن نصير ترابا وعظاما ، وإذا كان كذلك فأين آباؤنا الأولون ؟ هل سيبعثون وقد انقضى عليهم عهد طويل ؟ بالطبع لا .

وحينئذ يأتى الرد من المولى عز وجل على لسان سيدنا محمد – ﷺ – ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أى : أخبرهم يا محمد بأن الأولين الذين تزعمون أنه قد مضى عليهم عهد طويل ، والآخرين الذين هم أنتم ومن بعدكم كل هؤلاء لمجموعون يوم القيامة إلى هذا الوقت الذى أقته الله تعالى ، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾ الذين ضللتم عن الحق وكذبتم بالبعث لآكلون بعد البعث والجمع ودخول جهنم من شجر من زقوم وهو شجر له ثمر مر كريه ، ويجبر أهل النار على تناوله فهم يتذقمونه هو نزلهم وضيافتهم ، وهذا الشجر ينبت فى أصل الجحيم طلعه كريه الشكل مخيف وكأنه رءوس الشياطين ، وإذا كان شكله مخيفا فطعمه أصعب على النفس عند أكله لأن رائحته كريهة ، وإذا أصاب جلد الإنسان تورم فما بالك فى الأكل منه ؟

والأكل ليس قليلا فهم يأكلون منه ملء البطون من شدة الجوع وهذا الملء يحوجهم إلى شرب الماء فلا يجدون إلا الحميم وهو الماء المغلى من حرارة جهنم – والعياذ بالله – ليبتلعوا به الزقوم الذى أكلوه ، وشربهم يكون بمقدار أكلهم فهم قد أكلوا ملء البطون فلا بد أن يشربوا كثيرا وبشراهة فهم يشربون كما تشرب الهيم وهى الإبل المصابة بالهُيام وهو داء يصيب الإبل يورثها حمى فى الأمعاء فلا تزال تشرب ولا تروى ، فهم كذلك يشربون من الحميم كما تشرب هذه الإبل شربا لا ينقطع فآلامهم مستمرة .

وأتى بالفاء فى قوله :﴿ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ . فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴾ بعد قوله ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ . فَمَالِؤُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴾ ليفيد تعقيب أكل الزقوم وامتلاء البطون منه بشرب الحميم كشرب الهيم دون فترة ولا استراحة ، وهذا يعنى ما يحسونه من آلام وعناء فى الطعام والشراب .

وهذا الذى يعانون منه هو نزلهم أى ما يقدم للضيف من طعام وجئ بهذا على سبيل التهكم بهم ، وكأنه يقال لهم : ذوقوا ما كنتم تكسبون ، ذوقوا هذا الألم وهذا العذاب من أول لحظة جئتم فيها إلينا وهذا ما ينبغى أن يقدم لكم للتكريم ولكنه ليس تكريما بل إهانة كما قال تعالى فى سورة الدخان ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ . إِنَّ هَذَا مَا كُنتُم بِهِ تَمْتَرُونَ ﴾(١) .

على سبيل التهكم بهم والاستهزاء المستمر الذى لا ينقطع .

نسأل الله العفو والعافية والنجاة من النار إنه سميع قريب مجيب .

---

(١) سورة الدخان آيتا ٤٩ ، ٥٠ .

الموضوع السادس

دلائل وبراهين على قدرة الله تعالى

وهو أقسام (أ) الخلق والموت (ب) الحـــرث والزراعـــة (ج) مـــاء الشرب ونار الإيقاد .

(أ) الخلق والموت

قال تعالى ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ{٥٧} أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ{٥٨} أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ{٥٩} نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَـــوْتَ وَمَـــا نَحْـــنُ بِمَسْبُوقِينَ{٦٠} عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ{٦١} وَلَقَـــدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ{٦٢} ﴾ (الآيات من ٥٧ – ٦٢)

الدلالات اللغوية والإعراب :-

شرع ربنا فى تلوين الخطاب وتوجيهه إلى الكفـــرة بطريـــق الإلـــزام والتبكيت فقال لهم : نحن خلقناكم ثم جاء بالفاء لترتيب التحضيض على مـــا قبلها أى : فهلا تصدقون بالخلق . ولولا معناها التحضيض والحث والأصل فيه لم لا ؟ وهى كلمة شرط فى الأصل ، والجملة الشرطية غير مجزومـــة بها، كما أن جملة الاستفهام غير مجزومة به ، لكن لولا تدل على الاعتساف وتزيد نفى النظر والتوانى ، فيقول : لولا تصدقون بدل قوله : لم لا ، وهلا، لأنه أدل على نفى ما دخلت عليه وهو عدم التصديق ([1]) .

والمراد : فهلا تصدقون بالبعث والإعادة كما أقررتم بالنشأة الأولـــى وهى الخلق ، أو فلولا تصدقون بالخلق .

([1]) تفسير الرازى ١٧٧/٢٩ .

وهذه الآية يجوز أن تكون من تمام ما أمر الله به رسوله أن يقوله لهم، ويجوز أن يكون استئنافا مستقلا ، والخطاب على كلا الوجهين موجه للسامعين فليس فى ضمير (خلقناكم) التفات .

﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ يخاطب الله تعالى المشركين فى جولة من جولاته للكشف عن نعمه العظيمة ، وتذكيرهم بفضائله المتعددة ، حتى يحفزهم على الشكر والتقدير ، وهذا تفريع على ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أى : خلقناكم الخلق الذى لم تروه ولكنكم توقنون بأنا خلقناكم ، فتدبروا فى خلق النسل لتعلموا أن إعادة الخلق تشبه ابتداء الخلق .

وفعل الرؤية فى (أفرأيتم) من باب (ظن) لأنه ليس رؤية عين .

وقال الرضى : هو فى مثله منقول من رأيت ، بمعنى أبصرت أو عرفت كأنه قيل : أبصرت حاله العجيبة أو أعرفتها ؟ أخبرنى عنها ، فلا يستعمل إلا فى الاستخبار عن حالة عجيبة لشئ (١) .

والمعنى : أفرأيتم ما تقذفون فى الأرحام من النطف أأنتم تقدرونه وتصورونه بشرا سويا أم نحن الخالقون من غير دخل شئ فيه ؟

وقرئ (تمنون) بفتح التاء من منى النطفة بمعنى : أمناها أى : أزالها بدفع الطبيعة (٢) ويجوز فى (أنتم) أن يكون مبتدأ والجملة بعده خبره ، وأن يكون فاعلا لفعل محذوف والأصل : أتخلقون ، فلما حذف الفعل انفصل الضمير ، والثانى هو الأولى عند أبى حيان (٣) .

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٣/٢٧ .
(٢) روح المعانى ١٤٦/١٤ .
(٣) البحر المحيط ٢١١/٨ .

و(أم) قيل منقطعة لأن ما بعدها جملة فالمعنى : بل أنحن الخالقون على أن الاستفهام للتقرير ، وقال قوم : هى متصلة معادلة للهمزة كأنه قيل : ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ﴾ ثم جئ – بالخالقون – بعد بطريق التأكيد لا بطريق الخبرية أصالة (١) .

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أى : صرفناه بينكم وقسمناه عليكم ، وقدرنا بمعنى : أثبتنا وقضينا ، أو رتبنا فى التقدم والتأخر فليس موت العالم دفعة واحدة ، أو جعلنا له وقتا معينا .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ مغلوبين عاجزين عن خلق أمثالكم وإعادتكم يقال : سبقته على الشئ أعجزته عنه وغلبته عليه ولم أمكنه منه (٢) والمعنى: لا ينجو أحد من الموت حال كوننا قادرين أو عازمين على تبديل أمثالكم ، وجملة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حال ، وقوله ﴿عَلَى أَن نُّبَدِّلَ﴾ حال أيضا من الضمير المستتر فى مسبوقين .

فإن كانت (على) تعليلية فهى متعلقة بقدرنا ، والجملة بينهما معترضة، وتكون على معنى اللام ، (أمثالكم) جمع مثل بفتحتين بمعنى الصفة على أن المراد : نحن قادرون على أن نبدل صفاتكم وننشئكم فى مالا تعلمون من الصفات مما لا يحيط به علمكم من القردة والخنازير ، أو جمع مثل بكسر الميم وسكون الثاء بمعنى شبه ويكون المراد : نبدل منكم أشباهكم فنخلق بدلكم وننشئكم فى خلق لا تعلمونه أو صفات لا تعلمونها (٣) .

---

(١) روح المعانى ١٤٧/١٤ ، وأبو السعود ١٩٧/٨ .

(٢) المعجم الوجيز مادة (سبق) .

(٣) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ص٢١٦ .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أى : علمتم أنه هو الـذى أنشأكم أولا أنشأنا إنسانا ، وقيل : نشأة آدم وأنه خلق من طين ولا ينكرهـا أحد من ولده ، ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ حض على التذكير المؤدى إلـى الإيمـان والإقرار بالنشأة الآخرة (١) .

أو فهلا تتذكرون أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى حتما فإنه أقل صنعا لحصول المواد وتخصص الأجزاء وسبق المثال ، وفيه دليل على صحة القياس (٢) .

وفى الخبر : عجبا كل العجب للمكذب بالنشأة الآخرة وهو يرى النشأة الأولى ، وعجبا للمصدق بالنشأة الآخرة وهو يسعى لدار الغرور (٣) .

خصائص النظم والأسرار البلاغية :-

إذا نظرنا إلى قوله تعالى ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ نجد تقديم المسند إليه (نحن) على المسند الفعلى (خلقناكم) لإفادة تقوى الحكم ردًّا على إحالتهم أن يكـون الله قادرا على إعادة خلقهم بعد فناء معظم أجسادهم ، فهذا تذكير لهـم بمـا ذهلوا عنه بأن الله هو خالقهم أول مرة وهو الذى يعيد خلقهم ثـانى مـرة ، فالمقصود بتقوى الحكم الإفضاء على ما سيفرع عنه من قوله ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّـا تُمْنُونَ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ .

وموقعها استدلال وعلة لمضـمون جملـة ﴿ إِنَّ الْـأَوَّلِينَ وَالْـآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ﴾ ولذلك لم تعطف عليها (٤) .

---

(١) البحر المحيط ٢١١/٨ .

(٢) أبو السعود ١٩٧/٨ .

(٣) روح المعانى ١٤٧/١٤ .

(٤) التحرير والتنوير ٣١٢/٢٧ .

قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ الاستفهام هنا لزيادة التقرير ، وقوله تعالى ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ الاستفهام للتقرير بتعيين خالق الجنين من النطفة إذ لا يسعهم إلا أن يقروا بأن الله خالق النسل من النطفة وذلك يستلزم قدرته على ما هو من نوع إعادة الخلق .

وأيضا تقديم المسند إليه على المسند الفعلى فى ﴿ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ لإفادة التقوى لأنهم لما نزلوا منزلة من يزعم ذلك صيغت جملة نفيه بصيغة دالة على زعمهم تمكن التصرف فى تكوين النسل (١) .

و(أم) متصلة معادلة الهمزة وما بعدها معطوف لأن الغالب ألا يذكر له خبر اكتفاء بدلالة خبر المعطوف عليه على الخبر المحذوف ، وههنا أعيد الخبر فى ﴿ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ زيادة فى تقرير إسناد الخلق إلى الله فى المعنى ، وللإيفاء بالفاصلة وامتداد نفس الوقف ، ويجوز أن نجعل (أم) منقطعة بمعنى (بل) لان الاستفهام ليس بحقيقى فليس من غرضه طلب تعيين الفاعل ، ويكون الكلام قد تم عند قوله ﴿تَخْلُقُونَهُ﴾ .

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ فيه استعارة مكنية إذ شبه الموت بمقسوم ورمز إلى المشبه به بكلمة ﴿ بَيْنَكُمُ﴾ الشائع استعمالها فى القسمة ، وفى هذه الاستعارة كناية عن كون الموت فائدة ومصلحة للناس أما فى الدنيا لئلا تضيق بهم الأرض والأرزاق وأما فى الآخرة فللجزاء الوفاق .

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا القول نتيجة لما سبق من الاستدلال على أن الله قادر على الإحياء بعد الموت فكان مقتضى الظاهر أن يعطف بفاء التفريع ، ويترك عطفه فعدل عن الأمرين . عطف الجمل فيكون جملة مستقلة مقصودا لذاته ، لأن

---

(١) التحرير والتنوير ٣١٤/٢٧ .

مضمونه يفيد النتيجة ، ويفيد تعليما اعتقاديا ، فيحصل الإعلام به تصـــريحا وتعريضا ، فالتصريح منه التذكير بتمام قدرة الله تعالى وأنه لا يغلبه غالب ، وأنه يبدلهم خلقا آخر فى البعث مماثلا لخلقهم فى الدنيا ويفيد تعريضا بالتهديد باستئصالهم وتعويضهم بأمة أخرى والسبق : مجاز من الغلبة والتعجيز .

وبين قوله تعالى ﴿وَتُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقوله ﴿وَلَقَـــدْ عَلِمْـــتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى﴾ نجد محسنا بديعيا هو الطباق .

وعبر بالمضارع فى قوله ﴿ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للتنبيه على أن باب التذكر مفتوح فإن فاتهم التذكير فيما مضى فليتداركوه الآن .

المعنى العام للآيات :-

يوجه الله تعالى الخطاب إلى الكفرة بطريق الإلزام والتبكيت يقول لهم ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أى : فهلا تصدقون بالخلق أو بالبعث أفرأيتم ما تمنون وهو المنى الذى تقذفونه فى الأرحام أى أأنتم تخلقونـــه وتقدرونـــه وتصورونه بشرا سويا أم نحن الخالقون له بدون دخل من أحد ، ونحن أيضا قسمنا عليكم ووقتنا الموت لكل أحد بوقت معين حسبما تقتضيه مشيئتنا المبنية على الحكم البالغة ، وما نحن بمسبوقين أى أنا قادرون على أن نبدل أمثالكم لا يغلبنا أحد على أن نذهبكم ونأتى مكانكم بأشباهكم من الخلـــق ، وننشـــئكم فيما لا تعلمون من الخلق والأطوار ولا تعهدون بمثلها ، وقيل : إن المعنـــى وننشئكم فى البعث على غير صوركم فى الدنيا فمن هذا شأنه كيف يعجز عن إعادتكم ، وقيل المعنى : وما يسبقنا أحد فيهرب من الموت أو يغير وقتـــه ، ولقد علمتم النشأة الأولى وهى خلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضـــغة ، وقيل : هى فطرة آدم عليه السلام من التراب فلـــولا تـــذكرون أى : فهـــلا تتذكرون أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى حتما ، فإنه أقل صـــنعا لحصول المواد وتخصص الأجزاء وسبق المثال ، وفيه دليل علـــى صـــحة القياس .

والله تعالى أعلى وأعلم

(ب) الحرث والزراعة

قال الله تعالى :﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ {٦٣} أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ{٦٤} لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ{٦٥} إِنَّا لَمُغْرَمُونَ{٦٦} بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ{٦٧} ﴾ (الآيات من ٦٣ – ٦٧)

الدلالات اللغوية والإعراب :-

الحرث : هو شق الأرض ليزرع فيها أو يغرس ، وظاهر قوله ﴿ مَّا تَحْرُثُونَ﴾ أنه الأرض إلا أن هذا لا يلائم ضمير ﴿ تَزْرَعُونَهُ﴾ فتعين تأويل ﴿مَّا تَحْرُثُونَ﴾ بأن يقدر : ما تحرثون له ، أى : لأجله على طريقة الحذف والإيصال ، والذى يحرثون لأجله هو النبات ، وقد دل على هذا ضمير النصب فى ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ﴾ لأنه استفهام فى معنى النفى ، والذى ينفى هو ما ينبت من الحب لا بذره .

فإن فعل (زرع) يطلق بمعنى : أنبت ، قال الراغب : الزرع الإنبات لقوله تعالى ﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ فنفى عنهم الزرع ونسبه إلى نفسه .

ويطلق فعل (زرع) بمعنى : بذر الحب فى الأرض لقول صاحب اللسان : زرع الحب : بذره ، أى ومنه سمى الحب الذى يبذر فى الأرض زريعة لكن لا ينبغى حمل الآية على هذا الإطلاق ، فالمعنى : أفرأيتم الذى تحرثون الأرض لأجله وهو النبات ما أنتم تنبتونه بل نحن ننبته .

﴿ لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ اللام فى (لجعلناه) للتأكيد ، ويكثر اقتران جواب (لو) بهذه اللام إذا كان ماضيا مثبتا ، كما يكثر تجرده عنها كما سيجئ فى الآية التالية.

والحطام : الشئ الذى حطمه حاطم أى : كسره ودقه فهو بمعنى المحطوم أى : لو نشاء لجعلنا ما ينبت بعد خروجه من الأرض حطاما بأن نسلط عليه ما يحطمه من برد أو ريح أو حشرات قبل أن تنتفعوا به .

وتفكهون هنا يحمل أكثر من معنى : فقيل : تعجبون ، وقيل تتلاومون وقيل : تندمون ، وقيل تحزنون ، وقال الكسائى : هو تلهف على مافات (وفعل تفكه) من الأضداد تقول : تفكهت : أى تنعمت وتفكهت : أى : حزنت لكن الفعل هنا يفيد الحزن والمساواة بدليل قوله تعالى بعده ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ ومعنى مغرمون : من الغرام وهو الهلاك . كما فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾(١) .

وقال الشاعر : إن يعذب يكن غراما وإن يُعسط جزيلا فإنه لا يبالى والمراد : مهلكون بهلاك رزقنا ، ومجرومون أى : محرومون الرزق كلية وهذا تحسر منهم وندم على عصيانهم لله تعالى : وعدم اعتبارهم بما رزقهم الله دون تعب أو مشقة .

خصائص النظم والأسرار البلاغية :

رتب الله تعالى النعم فى الذكر ترتيبا حسنا حسب أهمية كل منها فقدم خلق الإنسان فى قوله (أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ)، ثم ذكر المأكول فى قوله (أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ)لأنه هو الغذاء وبه قوام البدن، وأتبعه بذكر المشروب لأن به الاستمرار وتهيئة الطعام فى قوله (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ) ، ثم ذكر النار التى بها إصلاح الطعام وهى متاع للمقوين فى قوله (أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ).

---

(١) سورة الفرقان من آية ٦٥.

فالله خلق الإنسان من نطفة ، والنعمة فى ذلك متقدمة على النعم الثلاث الأخرى (الحرث والماء والنار) لذلك وجب تقديم نعمة الخلق للإنسان عليهم جميعاً .

ثم أتى بما به قوام الإنسان من فائدة الحرث وهو الطعام الذى لايستغنى عنه الجسد الحى ، ثم أتى بعد ذلك بالماء إذ الطعام يحتاج فى عجينه إلى الماء ، ثم يأتى فى النهاية بالنار التى بها يكون إنضاج الطعام .

وعلى هذا جاء الترتيب على قدر الحاجة ، وكانت النعمة الثانية بعد الأولى على الترتيب .

والاستفهام فى قوله تعالى ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ للتقرير بأن الله وحده هو القادر على الإنبات ، وفى قوله (أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ) للتقرير أيضا والتأكيد .

وإن كنا نرى من يقول بأن الاستفهام فى قوله (أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ) إنكارى(١) .

وكذلك نرى تقديم المسند إليه (أَأَنتُمْ) على الخبر الفعلى (تَزْرَعُونَهُ) لإفادة التقوى .

وكذلك القول فى نفى الزرع عنهم وإثباته لله تعالى يفيد معنى قصر الزرع أى الإنبات على الله تعالى أى دونهم ، وهو قصر مبالغة لعدم الاعتداد بزرع الناس .

وكذلك مجئ الجملة اسمية للدلالة على ثبوت ذلك لله دون غيره .

وذكر مفعول المشيئة (حُطَامًا) فى قوله (لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا) لغرابة هذا الأمر وكونه عجيبا فى الدلالة على قدرة الله .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٢١/٢٧.

وقوله (تَفَكَّهُونَ) كناية عن التعجب والندم ، كما أن فـــى (تَفَكَّهُـــونَ) استعارة لأنه عبارة عن التنقل بصنوف الفاكهة والأكل منها ، فاستعير للتنقل بالحديث من موضع لآخر .

وقله (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) أكد الكلام بإن وإسمية الجملة واللام الداخلة علـــى الخبر لتحقق ما وقع بهم من الخسارة وعدم الانتفاع بما تعبوا فـــى ســـبيله ، وهذه الجملة مقولة لقول محذوف وهو (تقولون) أو (قائلين) وذلك من قبيـــل الإعجاز والإيجاز .

ففى جملة (إِنَّا لَمُغْرَمُونَ) تندم وحسرة على ما وقع بهم من التحطـــيم لزرعهم جزاء لكفرهم.

المعنى العام للآيات :

يبدأ الله تعالى الآيات بسوق دليل آخر على إمكان البعـــث وصـــلاحية قدرة الله له بضرب آخر من ضروب الإنشاء والعدم ، فبعد أن عرفهم بأنـــه الخالق ولا خالق غيره ، وهو الذى يعيدهم بعد موتهم تارة أخرى ، انتقل إلى دليل آخر وهو أن ما يحرثونه ويزرعونه فى الأرض ويبذرونه هل هم الذين يزرعونه زرعا يتم وينبت حتى تنتفع به ؟ أم أن الله تعالى هو الذى ينبته ؟ فالله تعالى لو شاء لجعله حطاما يابسا متفتتا ليس له حب ينتفع به ، فهو يسلط عليه ما يحطمه من برد أو ريح أو حشرات قبل أن ينتفعوا بـــه ، وحينئـــذ تقولون متفكهين ومتعجبين ونادمين ومتحسرين إنا لمهلكون لهـــلاك رزقنـــا وملزمون غرامة ما أنفقنا ، بل تقولون ، نحن محرومون محدودون لاحـــظ لنا، ولو كنا مجدودين لما جرى علينا هذا ، وكل هذه الألفاظ لا تفيد حينئـــذ لأنه قد وقع ما وقع وكل هذا نتيجة لكفركم وعنادكم .

ونسأل الله أن يجعلنا من الشاكرين لنعمه المقرين بفضله .

[ج] ماء الشرب ونار الإيقاد

قال الله تعالى : ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ {٦٨} أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ {٦٩} لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ {٧٠}أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ {٧١} أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ {٧٢} نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ {٧٤} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾

الآيات من ٦٨-٧٤

الدلالات اللغوية والإعراب :

الماء : المراد به العذب الذى يصلح للشرب ، فإن شرب الماء من أعظم النعم على الإنسان ليقابل بقوله بعده (لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) .

والمراد به ماء المطر ولذلك قال : (أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ) والمزن: اسم جمع مزنة وهى السحابة البيضاء المليئة بالماء .

أُجَاجًا: ملحا زعاقا لايقدر على شربه .

ودخلت اللام فى قوله (لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا) وسقطت فى قوله (جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) لأن هذه اللام مفيدة للتوكيد لا محالة ، وأدخلت فى آية المطعوم دون آية المشروب للدلالة على أن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب ، وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب من قبل أن المشروب إنما يحتاج إليه تبعا للمطعوم، ألا ترى أنك إنما تسقى ضيفك بعد أن تطعمه ، ولو عكست قعدت تحت قول أبى العلاء :

إذا سقيت ضيوف الناس محضا ∴ سقوا أضيافهم شبما زلالا

وسقى بعض العرب فقال : أنا لا أشرب إلا على ثميلة ، ولهذا قـدمت آية المطعوم على آية المشروب (١) . (فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) تحضيض على شكر النعم التى أنعم الله بها عليهم .

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ) تورون : أى : تقدحونها وتستخرجونها من الزناد ، والعرب تقدح بعودين تحك أحدهما على الآخر ويسمى الأعلى الزند والأسفل الزندة شبهوهما بالفحل والطروقة (أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا)يعنى الشجرة التى منها الزناد ، أو الشجرة التى تصلح للإيقاد.

(تَذْكِرَةً)تذكيرا لنار جهنم حيث علقنا بها أسباب المعايش كلها ، وعممنا بالحاجة إليها البلوى لتكون حاضرة للناس ينظرون إليها ويذكرون ما أوعدوا به ، أو جعلناها تذكرة وأنموذجا من جهنم .

(وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ) متاعا : ما يتمتع أى : ينتفع به زمانـا ، والمقـوى الداخل فى القواء بفتح القاف والمد وهى القفر ، ويطلق المقوى على الجـائع لأن جوفه أقوت أى : خلت من الطعام (فَسَبِّحْ بِاسْـمِ رَبِّـكَ الْعَظِـيمِ) أى : فأحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، أو أراد بالاسم الذكر أى : بذكر ربك .

والمعنى : أنه لما ذكر ما دل على قدرته وإنعامه على عبـاده قـال : فأحدث التسبيح ، وهو أن يقول : سبحان الله ، إما تنزيها لـه عمـا يقـول الظالمون الذين يجحدون وحدانيته ويكفرون نعمته ، وإما تعجبا من أمـرهم فى غمط آلائه ، وإما شكر الله على النعم التى عدها ونبه عليها .

---

(١) الكشاف ٥٧/٤ ، البحر المحيط ٢١٢/٨.

خصائص النظم والأسرار البلاغية :

فى قوله (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاء الَّذِي تَشْرَبُونَ) عبر باسم الموصول (الَّذِي) لتفخيم شأن الماء العذب ، وتخصيص الشرب بالذكر مع كثرة منافع الماء لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به.

(أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ ....) الاستفهام لزيادة التقرير والتأكيد على أنه وحده المنزل له ، وجعل استدلالا منوطا بإنزال الماء من المزن على طريقة الكناية بإنزاله ، عن تكوينه صالحا للشراب ، لأن إنزاله هو الذى يحصل منه الانتفاع به ولذلك وصف بقوله (الَّذِي تَشْرَبُونَ) وأعقب بقوله (لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) فحصل بين الجملتين احتباك كأنه قيل : أأنتم خلقتموه عذبا صالحا للشرب وأنزلتموه من المزن لو نشاء جعلناه أجاجا ولأمسكناه فى سحاباته أو أنزلناه على البحار أو الخلاء فلم تنتفعوا به .([1])

(نَحْنُ الْمُنزِلُونَ) أسلوب قصر أى : أن إنزال الماء مقصور عليه تعالى لا يتعداه إلى غيره .

(فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ) حث لهم على شكر النعمة لأن المعنى : أفلا تشكرون نعمة الله عليكم وتقرون بوحدانيته واستحقاقه للعبادة([2])

(نَحْنُ الْمُنشِؤُونَ) قصر لبيان أن الله تعالى هو المنشئ لتلك الشجرة دون غيره .

وقدم وصف النار فى كونها تذكرة على كونها متاعا ، ليعلم أن الفائدة الأخروية أولى وأهم من الفائدة الدنيوية .

([1]) التحرير والتنوير ٣٢٤/٢٧.

([2]) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ٢٣١.

وآثر وصف النار بأنها متاع للمقوين ليجمع بين المعنيين المفهـــومين من معنى المقوى فكما قلنا إما أن يقصد به الداخل فى القواء وهى القفـــر ، وإما أن يطلق على الجائع لأن جوفه أقوت أى : خلت من الطعام .

فهذا الوصف جمع المعنيين ، فإن النار متاع للمسافرين يستضيئون بها فى مناخهم ، ويصطلون بها فى البرد ، ويراها السائر ليلا فى القفر فيهتدى إلى مكان النزل فيأوى إليهم ومتاع للجائعين يطبخون بها طعامهم فى الحضر والسفر ، وهذا إدماج للامتنان فى خلال الاستدلال ، واختير هذان الوصفان لأن احتياج أصحابهما إلى النار أشد من احتياج غيرهما . ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ قوله : باسم إما فيه إيجاز بتقدير مضاف أى : سبح بذكر اسم ربـــك ، أو أن الاسم هنا مجاز عن الذكر ، وقيل : يجوز إبقاؤه على ظاهره بلا تجوز كما فى ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فإنه كما يجب تقديس ذاته يجب تنزيه الألفـــاظ الدالة عليه ، فلا يخالف الأدب وهو أبلغ ، لأنه إذا نزهت الألفاظ الدالة عليه سبحانه لزم ذلك تقديس ذاته بالطريق الأولى على طريق الكناية الرمزية .

وعلى أن المراد بالتسبيح هنا التعجب من حال الكافرين يكون (سَـــبِّحِ) مجازا عن التعجب وهو مشهور (١) .

المعنى العام للآيات :

يلفت الله أنظار العباد إلى الماء الذى يشربونه عذبا صـــالحا للشـــرب فيقول لهم : هل أنتم الذين أنزلتم هذا الماء من السحاب أم نحن الذين أنزلناه بقدرتنا ولو نشاء جعلناه ملحا زعاقا لا يمكن شربه أو الانتفاع بـــه ، وهـــذا يستوجب منكم الشكر للمنعم لا الجحود والكفر .

---

(١) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ٢٣٢

وهنا يبرز سؤال وهو : لماذا ختم الله الآيات الأولى الدالة على الخلق والإيجاد بالفاصلة (فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ) والآيات الخاصة بنعمة الماء وإنزاله من المزن بالفاصلة (فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)وهل يجوز أن تكون إحداهما مكان الأخرى ؟

والجواب عن ذلك هو : أن فى الآيات الأولى تنبيها على البعث والنشور وتذكيرا بأن النشأة الثانية والحياة الآخرة مثل النشأة الأولى ، وفى نظر المتأمل أن النشأة الأولى أصعب من الثانية ، وأنتم أقررتم بالنشأة الأولى لقوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (١). فلو تذكرتم إقراركم هذا للزمكم بالضرورة الإقرار بالنشأة الثانية ، ولذلك كان من المناسب أن تختم الآيات بقوله (فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ).

وأما الفاصلة الثانية فقد جاءت بعد قوله (لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا) أى : شديد الملوحة كماء البحر فهلا تشكرون الله على أن جعله عذبا فجاءت الفاصلة متممة لهذا المعنى ، وعلى هذا فقد كانت كل فاصلة فى محلها مستقرة فى مكانها (٢)

ثم يلفت نظرهم إلى شىء آخر يعيشون به وينتفعون وهو النار التى يوقدونها فيستفيدون منها فى حياتهم هل هم الذين أنشأوا شجرتها التى منها الزناد أم أن الله تعالى هو المنشئ لها بقدرته ؟ والتعبير بالإنشاء عن الخلق المنبئ عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة لما فيه من الغرابة

---

(١) الزخرف من الآية ٨٧.

(٢) من أسرار التعبير فى القرآن . الفاصلة القرآنية للدكتور عبد الفتاح لاشين ص ٨٩ طبعة ١٩٨٢ م الرياض .

الفارقة بينها وبين سائر الشجر التى لاتخلو عن النار ، حتى قيل فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار(١)

ثم يقول لهم : نحن جعلناها تذكيرا بنار جهنم أو أنموذجا من نار جهنم ومتاعا للمسافرين وأهل البادية من طهى وخبز وغير ذلك فانظروا إليها واعتبروا وخافوا ربكم واشكروا له نعمه العظيمة التى لاتعد ولا تحصى .

وبعد ذكر الله تعالى لما دل على قدرته قال لرسوله – صلى الله عليه وسلم – فسبح أى أحدث التسبيح بذكر اسم ربك ، أو بذكر ربك وهو أن تقول : سبحان الله تنزيها له عما يقول الظالمون ، وإما تعجبا من أمرهم فى غمط نعم الله تعالى ، وإما شكر للمنعم على النعم التى عدها ونبه عليها .

---

(١) تفسير أبى السعود ١٩٨/٨ . والمرخ : شجر سريع الورَىْ ، والعفار : شجر يتخذ منه الزناد ، شجره شبيه بالغبيراء الصغيرة ، والعفار : تلقيح النخل وإصلاحه أن يترك النخل بعد السقى أربعين يوما لا يسقى لئلا ينتفض حمله ثم يسقى ويترك . معجم متن اللغة للشيخ محمد رضا مادة عفر . (دار مكتبة الحياة ببيروت ١٩٦٠م) .

الموضوع السابع

(قسم الله على عظمة القرآن الكريم)

قوله تعالى :﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ {٧٥} وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ {٧٦} إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ {٧٧} فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ {٧٨} لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ {٧٩} تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ {٨٠} أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ {٨١} وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ {٨٢} (الآيات ٧٥ – ٨٢)

الدلالات اللغوية والإعراب :-

قوله تعالى (فَلَا أُقْسِمُ) اختلف العلماء فى اللام ومعناها فبعضهم قال : إنها نافية والمنفى بها ما تقدم فى سورة أخرى ، ثم استؤنف القسم : أقسم . وهذا الرأى رده أبو حيان وذلك لأن هذا يستدعى حذف اسم لا وخبرها وليس جوابا لسائل سأل فيحتمل ذلك نحو قوله لا ، لمن قال هل من رجل فى الدار ؟([1])

وقيل : هى زائدة : توطئة وتمهيداً لنفى الجواب محذوفا ، ورد بأنه لا وجه لتقدير الجواب وقد جاء صريحا فى قوله (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ).

وقيل : إنها زيدت لمجرد التأكيد وتقوية الكلام ، ورد بأنها لا تزاد لذلك فى صدر الكلام ، بل تزاد حشوا ، لأن زيادة الشئ تفيد اطراحه ، وكونه فى أول الكلام يفيد الاعتناء به ([2])

([1]) البحر المحيط ٢١٣/٨.

([2]) مغنى اللبيب لابن هشام ١٨٤/١ طبعة الجمالية بالقاهرة ١٣٢٩هـ.

وقيل : إنها ليست نافية ولا زائدة ، وإنما هى لام الابتـــداء أشـــبعت فتحتها فتولدت عنها ألف ، ولما كان لام الابتداء لا تدخل على الفعل قـــدروا دخولها فى الآية على جملة من مبتدأ وخبر (فلأنا أقسم) ثم حذف المبتدأ .

ورده الزمخشرى بأن اللام فى هذه القراءة لا تصح أن تكون لام قسم لأمرين :

أحدهما : أن حقها أن يقرن بها النون المؤكدة ، والإخلال بها ضعيف قبيح .

والثانى : أن سياق الآية يرشد إلى أن القسم بمواقع النجـــوم واقـــع ، ومقتضى جعلها جوابا لقسم محذوف أن تكون للاستقبال ، وفعل القسم يجب أن يكون للحال ([1])

وبعد استعراض هذه الآراء الأربعة وتدبر سياق آيات (لَا أُقْسِمُ)نستطيع أن نقول :

إن مثل هذا السياق يدل على أن القائل لا يقدم على القسم بما أقسم بـــه خشية سوء عاقبة الكذب فى القسم ، وبمعنى أنه غير محتاج إلى القســـم لأن الأمر واضح الثبوت ([2]) ، فلا هنا لنفى الحاجة إلى القسم ، ومن نفى الحاجة إلى القسم يأتى التوثيق والتقرير لأنه يجعل المقام فى غنى بالثقة واليقين عن الإقسام .

والسر البيانى لهذا الأسلوب يعتمد فى قوة اللفت على ما يبدو بين النفى والقسم من مفارقة مثيرة لأقصى الانتباه ، وما نزال بسليقتنا اللغويـــة نؤكـــد

([1]) الكشاف ٥٨/٤.

([2]) التحرير والتنوير ٣٣٠/٢٧.

الثقة بنفى الحاجة معها إلى القسم ، فنقول لمن تثق فيه : لا تقسم أو : من غير يمين (١) .

ونرى بعض العلماء يشير إلى أن (لا) الواردة فى القسم القرآنى مثل قوله تعالى (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) تأتى للنفى تعظيما للمقسم به ، وليس ذلك بمانع من أن تكون هذه الصيغة مؤكدة لما يذكر بعدها(٢) .

قوله (بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) جمع موقع ، يجوز أن يكون مكان الوقوع أى : محال وقوعها فمواقع النجوم مواضع غروبها ، ويطلق أيضا على الحلول فى المكان ، ومنه جاء اسم الواقعة للحادثة .

والمواقع : هى أفلاك النجوم المضبوطة السير فى أفق السماء ، وكذلك بروجها ومنازلها .

وذكر(مَوَاقِعِ النُّجُومِ) على كلا المعنيين تنويه بها وتعظيم لأمرها لدلالة أحوالها على دقائق حكمة الله تعالى فى نظام سيرها وبدائع قدرته على تسخيرها .(٣)

وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد وغيرهم : هى نجوم القرآن التى أنزلت على رسول الله – صلى الله عليه وسلم –ويؤيد هذا القول قوله (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) فعاد الضمير على ما يفهم من قوله (بمواقع النجوم) أى : نجوم القرآن وقيل : النجوم الكواكب ومواقعها (٤) .

---

(١) الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق دراسة قرآنية لغوية وبيانية للدكتورة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ٢٨٥ الطبعة الثانية دار المعارف ١٩٨٧م.

(٢) من بلاغة القرآن . لأحمد أحمد بدوى ص ١٠١ الطبعة الأولى ١٩٧٧م دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة القاهرة .

(٣) التحرير والتنوير ٣٣١/٢٧.

(٤) البحر المحيط ٢١٤/٨.

وقيل : مواقع النجوم هى الأنواء التى يزعم الجاهلية أنهم يمطرون بها، ولعله مأخوذ من بعض الآثار الواردة فى سبب النزول (١) ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ مشتمل على اعتراض فى ضمن آخر ، وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَسَمٌ﴾ معترض بين القسم والمقسم عليه وهو قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ وهو تعظيم للقسم مقرر ومؤكد له .

وقوله (لَّوْ تَعْلَمُونَ) معترض بين الصفة والموصوف وهو تأكيد لذلك التعظيم وجواب (لو) إما متروك أريد به نفى علمهم ، أو محذوف ثقة بظهوره أى لعظمتموه أو لعملتم بموجبه .

(إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ) القرآن : الكلام المقروء ، أى المتلو المكرر أى : هو كلام متعظ به محل تدبر وتلاوة .

والكريم : النفيس الرفيع فى نوعه ، وهذا تفضيل للقرآن على أفراد نوعه من الكتب الإلهية مثل : التوراة والإنجيل والزبور .

(فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ) وصف ثان للقرآن بعد أن وصف بـ(كريم) ، وذلك وصف كرامة لا محالة ، فليس لفظ (كتاب) ولا وصف (مكنون) مرادا بهما الحقيقة إذ ليس فى حمل ذلك على الحقيقة تكريم ، فحرف (فى) للظرفية المجازية ، فاستعير حرف الظرفية لمعنى مطابقة ما هو عند الله تشبيها لتلك المطابقة باتحاد المظروف بالظرف .

وجملة (لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ) صفة ثانية للكتاب .

والمطهرون : الملائكة والمراد الطهارة النفسانية وهى الزكاء وهذا قول جمهور المفسرين (٢)

---

(١) روح المعانى ١٥٢/١٤.

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٤/٢٧.

ومعنى المس : الأخذ ، ويطلق على المخالطة والمطالعة .

وقيل : المراد لا يمسه إلا المطهرون من الشرك ، فلا يمسه اليهود والنصارى ولا يمكنون من القراءة فيه ، وقيل : لا يمسه جملة مستأنفة ورجح كونها مستأنفه أن الكلام مسوق لتعظيم القرآن (١)

(تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ) صفة للقرآن أى منزل من رب العالمين ، وقيل : إنه وصف بالمصدر لأنه نزل منجما من بين سائر الكتب ، وقيل : إن (تنزيل) خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو تنزيل ، وقرئ تنزيلا بالنصب على تقدير فعل محذوف أى : نزل تنزيلاً(٢)

(أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ) الإشارة هنا إلى القرآن الكريم وهو المشهور وقيل : الإشارة إلى ما تحدثوا به من قبل من قولهم (وكانوا يقولون أئذا متنا) والخطاب فى أنتم) للكفار (مدهنون) متهاونون به كمن يدهن فى الأمر وهو المكذب ، والادهان : تليين الكلام لاستمالة السامع من غير اعتقاد صحة الكلام من المتكلم والمعنى حينئذ : لا تتراخوا فى هذا الحديث وتدبروه وخذوا بالفور فى اتباعه ، وإن فسر (مدهنون) بمعنى تكذبون فالمعنى واضح (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) أى : وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون على تقدير حذف مضاف .

وقال ابن عطية : أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين فى المطر الذى ينزله الله رزقا . هذا بنوء كذا وكذا .

وقيل المراد : أى : وتجعلون معاشكم وكسبكم تكذيب محمد (٣)

---

(١) من أسرار النظم فى القرآن الكريم ٢٤٣.

(٢) روح المعانى ١٤/١٥٤.

(٣) الفخر الرازى ٢٩/١٩٨.

خصائص النظم والأسرار البلاغية :

قوله تعالى (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) تأكيد بإن واللام واسمية الجملة للدلالة على أن فى المقسم عليه من العظمة ورفعة الشأن مالا يحيط به الوصف والآية معترضة بين القسم وجوابه ، وجمله (لَّوْ تَعْلَمُونَ)معترضة بين الموصوف وصفته وهى اعتراض فى اعتراض ، وذلك أن قوله تعالى (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ) اعتراض أول جاء تعظيما للقسم مقررا ومؤكدا له والاعتراض الثانى (لَّوْ تَعْلَمُونَ) تأكيد لذلك التعظيم .

(والكتاب المكنون) مستعار لموافقة ألفاظ القرآن ومعانيه ما فى علم الله تعالى وإرادته وأمره الملك بتبليغه إلى الرسول – ﷺ – وتلك شئون محجوبة عنا ، فلذلك وصف الكتاب بالمكنون اشتقاقا من الاكتنان وهو الاستتار أى : محجوب عن أنظار الناس فهو أمر مغيب لا يعلم كنهه إلا الله .

وحرف (فى) من قوله تعالى (فى كتاب مكنون) للظرفية المجازية ، استعير حرف الظرفية لمعنى مطابقة ما هو عند الله تشبيها لتلك المطابقة باتحاد المظروف بالظرف .

كما استعير الكتاب للأمر الثابت المحقق الذى لا يقبل التغيير ، فالتأم من استعارة الظرفية لمعنى المطابقة ، ومن استعارة الكتاب للثابت المحقق معنى موافقة معانى هذا القرآن لما عند الله من متعلق علمه ومتعلق إرادته وقدرته وموافقة ألفاظه لما أمر الله بخلقه من الكلام الدال على تلك المعانى على أبلغ وجه (١) .

(لا يمسه إلا المطهرون) نفى المس كناية عن لازمه وهو الإطلاع عليه فقد نفى المس وأراد نفى الإطلاع عليه وعلى ما فيه .

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٤/٢٧ .

وعلى أن المراد بالقرآن : المصحف يكون فى الكلام مجاز بـــإطلاق القرآن على المصحف بعلاقة المجاورة والقرب ، وقوله (لا يمسه) نفى معناه النهى على الاستعارة وهو أبلغ من النهى الحقيقى .

كما أن قوله (لا يمسه إلا المطهرون) يفيد القصر بمعنـــى أن مـــس المصحف مقصور على المطهر لا غيره ، وعلى أن قوله (تنزيل) خبر لمبتدأ محذوف يكون فى الكلام إيجاز بحذف المسند إليه .

والاستفهام فى قوله ﴿ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنـــتُم مُّـــدْهِنُونَ﴾ للتـــوبيخ أى : كلامكم لا ينبغى إلا أن يكون مداهنة كما يقال لأحد قال كلاما باطلا : أتهزأ؟

والعدول عن الإضمار إلى اسم الإشارة فى قوله (أَفَبِهَذَا) دون أن يقول : أفبه إخراج للكلام على خلاف مقتضى الظاهر لتحصل باسم الإشارة زيادة التنويه بالقرآن .

(ومدهنون) بمعنى متهاونون به على المجاز أو الاستعارة ، وذلك أن أصل الادهان جعل الأديم ونحوه مدهونا بشئ من الدهن ، ولما كـــان ذلـــك ملينا له لينا حسيا أريد به اللين المعنوى على أنه نقل من معناه وهو جعـــل الأديم لينا إلى مطلق اللين مجازا مرسلا باستعمال الخاص فى العام أو على استعارته من المحسوس للمعقول وهو المداهنة والكذب فى الكلام .

وتقديم المجرور فى قوله (بهذا الحديث) للاهتمام ، وصـــوغ الجملـــة الاسمية فى (أنتم مدهنون) لأن المقرر عليه إدهان ثابت مستمر .

(وتجعلون رزقكم) من قبيل الإيجاز بحذف المضاف والتقدير وتجعلون شكر رزقكم ، أو أن الرزق هنا مجاز عن لازمه وهو الشكر مجاز مرســـل بعلاقة اللزوم حيث أطلق الرزق وأراد به الشكر .

وإذا جعلنا قوله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) من عطف الجملة على الجملة فتكون داخلة فى حيز الاستفهام الذى قبله ، والمعنى : أفتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فيكون الاستفهام المقدر بعد العاطف إنكارى.

المعنى العام للآيات :-

يبدأ الله تعالى الآيات بقوله ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ و(لا أقسم) بمعنى : أقسم ، و(لا) مزيدة للتوكيد(١) ، وأصلها نافية تدل على أن القائل لا يقدم على القسم بما أقسم به خشية سوء عاقبة الكذب فى القسم ، أو بمعنى أنه غير محتاج إلى القسم لأن الأمر واضح الثبوت ، ثم كثر هذا الاستعمال فصار مرادا تأكيد الخبر فساوى القسم بدليل قوله عقبه ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ .

والوجه الثانى هو الأنسب بما وقع من مثله فى القرآن .

وعلى الوجهين فهو إدماج للتنويه بشأن ما لو كان مقسماً لأقسم به ، وعلى الوجه الثانى يكون قوله (وإنه لقسم) بمعنى : وإن المذكور لشئ عظيم يقسم به المقسمون ، فإطلاق قسم عليه من إطلاق المصدر وإرادة المفعول ، كالخلق بمعنى المخلوق (٢) .

والقسم هنا بمواقع النجوم : أى : محالها أو مواضع غروبها ، وجعل (مواقع النجوم) بهذا المعنى مقسما به لأن تلك المساقط فى حال سقوط النجوم عندها تذكر بالنظام البديع المجعول لسير الكواكب كل ليلة لا يختل ولا يتخلف ، وتذكر بعظمة الكواكب وبتداولها خلفة بعد أخرى ، وذلك أمر عظيم يحق القسم به الراجع إلى القسم بمبدعه .

---

(١) انظر تفسير أبى السعود ١٩٩/٨ ، الكشاف ٥٨/٤ ، روح المعانى ١٥٨/١٤ ، الرازى فى أحد أقواله ١٨٨/٢٩ ، البحر المحيط فى أحد أقواله ٢١٣/٨ .

(٢) التحرير والتنوير ٣٣٠/٢٧ .

وهذا القسم – لو تعلمون عظمته – عظيم وهذا اعتراض فى اعتراض، لأن المعنى ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ ولكن اعترض بقوله ﴿إنه لقسم عظيم ﴾ ثم جاء الاعتراض الثانى داخل الاعتراض الأول وهو قوله (لو تعلمون) فأصبح المعنى الاجمالى ﴿وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ .

والقرآن هو الكلام المقروء أى المتلو المكرر أى : هو كلام متعظ به محل تدبر وتلاوة ، والكريم : النفيس الرفيع فى نوعه ، وكريم صفة للقرآن ثم جاء وصف ثان وهو قوله (فى كتاب مكنون) فهو كتاب مكنون أى : أن القرآن الذى بلغهم وسمعوه من النبى – ﷺ – هو موافق لما أراد الله إعلام الناس به ، وما تعلقت قدرته بإيجاد نظمه المعجز ليكمل له وصف أنه كلام الله تعالى وأنه لم يصنعه بشر.

وهذا القرآن لا يمسه إلا المطهرون وهذه صفة ثانية لكتاب ، والمطهرون الملائكة والمراد الطهارة النفسانية وهى الزكاء وهذا قول جمهور المفسرين والمقصود : أن هذا القرآن ليس كما يزعم المشركون قول كاهن فإنهم يزعمون أن الكاهن يتلقى من الجن والشياطين ما يسترقونه من أخبار السماء بزعمهم ، ولا هو قول شاعر إذ كانوا يزعمون أن لكل شاعر شيطانا يملى عليه الشعر ، ولا هو أساطير الأولين ، لأنهم يعنون بها الحكايات المكذوبة التى يتلهى بها أهل الاسمار ، فقال الله : إن هذا القرآن مطابق لما عند الله الذى لا يشاهده إلا الملائكة المطهرون ، وهو تنزيل من رب العالمين وهذه الجملة تابعة لصفة القرآن ، أى : فبلوغه إليكم كان بتنزيل من الله أى نزل به الملائكة .

أفبهذا الحديث أى القرآن أنتم مدهنون أى : متهاونون مكذبون به غير مصدقين والاستفهام هنا للتوبيخ أى : كلامكم لا ينبغى إلا أن يكون مداهنة كما يقال لأحد قال كلاما باطلا : أتهزأ .

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ وهذه جملة عطفت على ما قبلها فتكون داخلة فى حيز الاستفهام ومستقلة بمعناها ، والمعنى : أفتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ، والاستفهام المقدر بعد العاطف إنكارى ، وإذ كان التكذيب لا يصح أن يجعل رزقا تعين بدلالة الاقتضاء تقدير محذوف يفيده الكلام فقدره المفسرون : وتجعلون شكر رزقكم أى : تجعلون شكر الله على رزقه إياكم أن تكذبوا بقدرته على إعادة الحياة ، وقال ابن عطية : أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين فى المطر الذى ينزله الله رزقا : هذا بنوء كذا وكذا .

وقال الرازى فى هذا المعنى : وتخافون أنكم إن صدقتم ومنعتم ضعفاءكم عن الكفر يفوت عليكم من كسبكم ما تربحونه بسببهم فتجعلون رزقكم أنكم تكذبون الرسل (١) . والقول الأول عليه أكثر المفسرين .

والله أعلى وأعلم .

---

(١) تفسير الرازى ١٩٨/٢٩ .

الموضوع الثامن والأخير

قدرة الله على الإماتة وعجز الناس عن المقاومة وجزاء كل نوع

قال الله تعالى :﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ{٨٣} وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ{٨٤} وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ{٨٥} فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ{٨٦} تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{٨٧} فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ{٨٨} فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ{٨٩} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{٩٠} فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ{٩١} وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ{٩٢} فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ{٩٣} وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ{٩٤} إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ{٩٥} فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ{٩٦} ﴾ (الآيات من ٨٣ – ٩٦)

الدلالات اللغوية والإعراب :-

فلولا إذا بلغت الحلقوم : بلغت : الروح ، الحلقوم : ممر الطعام والشراب وهو الحلق . ولولا : للتحضيض لإظهار عجزهم ، وإذا ظرفية أى: فهلا إذا بلغت النفس أى الروح وقيل : نفس الحلقوم وتداعت إلى الخروج.

وحذف الفاعل فى قوله (بلغت) للإيجاز وهو جائز لأنه عائد على مفهوم من العبارات لظهور أن التى تبلغ الحلقوم هى الروح ، وذلك نحو قوله تعالى ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾(١) أى : الشمس . وأل فى (الحلقوم) للعهد الجنسى .

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ حال من ضمير (بلغت) ، ومفعول تنظرون محذوف تقديره : تنظرون صاحبها أى : صاحب الروح ، بقرينة قوله تعالى بعده (ونحن أقرب إليه) وفائدة هذه الحال تحقيق أن الله صرفهم عن محاولة

---

(١) سورة ص من الآية ٣٢ .

إرجاعها مع شدة أسفهم لموت الأعزة والخطاب (وأنتم) لمن حضر الميت أو لجميع البشر ، (حينئذ) أى : حين إذ بلغت الروح الحلقوم ، و(تنظرون) يعنى إلى الميت متى تخرج روحه ، وقيل : تنظرون إلى أمرى وسلطانى لا يمكنكم الدفع ولا تملكون شيئا .

وجملة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ فى موضع الحال من مفعول (تنظرون) المحذوف أو معترضة والواو اعتراضية .

وقرب الله : قرب علم وقدرة ، أو قرب ملائكته المرسلين لتنفيذ أمره فى الحياة والموت .

وجملة ﴿وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ معترضة بين جملة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ وجملة ﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ وكلمة (فلولا) الثانية تأكيد لفظى لنظيرها السابق ، أعيد لتبنى عليه جملة (ترجعونها) لطول الفصل .

وجملة ﴿ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ معترضة أو حال من الواو فى (ترجعونها) وجواب شرط (إن) محذوف دل عليه فعل (ترجعونها) .

وجملة (إن كنتم صادقين) بيان لجملة ﴿ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ وقوله ﴿ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ فرض وتقدير فـ(إنْ) فيه بمنزلة (لو) أى : لو كنتم غير مدينين أى غير مجزيين على الأعمال .

وأسند فعل ﴿ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ إلى المخاطبين بضمير المخاطبين دون أن يقول : إن كان الناس غير مدينين ، لأن المخاطبين هم الذين لأجل إنكارهم البعث سيق هذا الكلام ، والمعنى : لو كنتم أنتم وكان الناس غير مدينين لما – أخرجت الأرواح من الأجساد ، إذ لا فائدة تحصل من تفريق ذينك الإلفين لولا غرض سام وهو وضع كل روح فيما يليق بها من عالم الخلود جزاء على الأعمال .

وقوله (إن كنتم غير مدينين) إيماء إلى أن الغرض من سوق هذا الدليل إبطال إنكارهم البعث الذى هو لحكمة الجزاء .

(فأما إن كان من المقربين) أى : المتوفىً من المقربين السابقين من الأزواج الثلاثة التى ذكرت فى صدر السورة وهنا رد للعجز على الصدر (فروح) أى الراحة أى فروح له أى : هو راحة ونعيم .

وقرئ بضم الراء والمعنى حينئذ : أن روحه معها الريحان وهو الطيب وجنة النعيم ، وقيل : أطلق الروح بضم الراء على الرحمة لأن من كان فى رحمة الله فهو الحى حقا فهو ذو روح .

(والريحان) شجر لورقه وقضبانه رائحة ذكية شديد الخضرة ، كانت الأمم تزين به مجالس الشراب .

وجملة (فروح وريحان) جواب (أما) التى هى بمعنى : مهما يكن من شئ وجواب (إن) الشرطية محذوف أغنى عنه جواب (أما) .

وكذلك قوله ﴿فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ .

والسلام : اسم للسلامة من المكروه ، ويطلق على التحية ، واللام فى (لك) للاختصاص ، والكلام إجمال للتنويه بهم وعلو مرتبتهم وخلاصهم من المكدرات لتذهب نفس السامع كل مذهب .

والخطاب قيل : لغير معين أى : لكل من يسمع هذا الخبر ، وقيل : للبنى - ﷺ - لأن النبى يسر بما يناله أهل الإسلام من الكرامة عند الله ، وقيل : الكلام على تقدير القول : أى : فيقال له : سلام لك ، أى : تقول له الملائكة .

﴿مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أى : أنت من أصحاب اليمين و(من) على هذا تبعيضية فهى بشارة للمخاطب عند البعث .

وقيل : الكاف خطاب لمن كان من أصحاب اليمين على طريقة الالتفات .

﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ﴾ هم أصحاب الشمال فى التقسيم السابق إلى أزواج ثلاثة ، فنزل : أى يقدم لهم على طريق التهكم حميم جهنم والتصلية : مصدر صلاه المشدد إذا أحرقه وشواه ، يقال صلى اللحم تصلية : إذا شواه ، وهو هنا من الكلام الموجه لإيهامه أنه يصلى له الشواء فى نزله على طريقة التهكم أى : يحرق بها .

الجحيم : النار المؤججة ، ويطلق علما على جهنم دار العذاب والعياذ بالله .

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ الإشارة إلى القرآن ، أو على كل ما ذكر فى السورة ، أو إلى جزاء الأزواج الثلاثة ، والحق : الثابت واليقين : المعلوم الذى لا يقبل التشكيك .

وإضافة حق إلى اليقين من إضافة الصفة إلى الموصوف ؛ أى : لهو اليقين الحق .

ويجوز أن تكون الإضافة بيانية على معنى (من) وحقيقته على معنى اللام بتقدير : لهو حق الأمر اليقين .

واشتمل هذا التذييل على أربعة مؤكدات هى : إن ، لام الابتداء ، ضمير الفصل ، إضافة شبه المترادفين .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)بعد أن أوجز حال الفرق الثلاثة فى الآخرة أمر نبيه أن يسبح الله تسبيحا استحقه لعظمته ، والتسبيح ثناء ، فهو يتضمن حمدا لنعمته وما هدى إليه من طرق الخير .

والعظيم : يجوز أن يكون صفة لاسم ، ويجوز أن يكون صفة لربك.

خصائص النظم والأسرار البلاغية :

في قوله تعالى (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ) إيجاز بحذف الفاعل أى : بلغت النفس أو الروح .

و(إِذَا بَلَغَتِ)ظرف متعلق بـ(ترجعونها)مقدم عليه لتهويله والتشويق إلى الفعل المحضوض عليه .

وفي قوله (وَنَحْنُ أَقْرَبُ) على تفسير القرب بالعلم : أى ونحن أعلم ، ويكون في الكلام مجاز مرسل علاقته السببية حيث ذكر السبب وهو القرب وأريد المسبب وهو العلم ، ويمكن أن يكون استعارة تمثيلية على تشبيه حال الميت وعلم الله بكل أحواله في تلك اللحظة بحال من قرب من الشئ فيكون مطلعا على كل حركاته ولا يخفى عليه شئ منها .

وقوله تعالى (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) جملة معترضة لبيان علم الله بحال الميت وأنه قادر محى مميت ، وهى احتراس لبيان أن ثمة حضوراً أقرب من حضورهم عند المحتضر وهو حضور التصريف لأحوال الباطنة ، وهى مؤكدة لما سيق له الكلام من توبيخهم على صدور ما يدل على سوء اعتقادهم بربهم سبحانه منهم .

وكذلك جملة (وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ) معترضة بين جملة (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ) وجملة (فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) لنفى الإبصار عنهم وهو مجاز عن نفى إدراك الحقيقة لما يدور وما يجرى للميت ، وما يقاسيه من سكرات الموت ، وفى ذلك غاية المبالغة حيث جعل إبصارهم كالعدم .

والجملة أيضا لرفع توهم قائل : كيف يكون أقرب إلى المحتضر من العواد الحافين حوله وهم يرون شيئا غيرهم ، يدفع ذلك بأنهم محجوبون عن رؤية أمر الله تعالى .

وفى قوله (تَرْجِعُونَهَا) تهكم بهم وإظهار لعجزهم : وقوله (تَرْجِعُونَهَا)سد مسد الأجوبة والبيانات التى تقتضيها التخصيصات ، و(إذا) من قوله (فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ)و(إن) المتكررة ، وحمل بعض القول بعضا إيجاز أو اقتضابات .

وأصل تركيب الجملة والله أعلم : فإذا كنتم صادقين فى أنكم غير مدينين فلولا حاولتم عند كل محتضر إذا بلغت الروح الحلقوم أن ترجعوها إلى مواقعها من أجزاء جسده فماصرفكم عن محاولة ذلك إلا العلم الضرورى بأن الروح ذاهبة لا محالة .

وبهذا يتضح لنا انتظام الآية التى نظمت نظما بديعا من الإيجاز ، وأدمج فى دليلها ما هو تكملة للإعجاز .

وفى قوله (فروح) إيجاز بحذف المسند أى : فله روح .

وفى قوله (وريحان)أطلق الريحان على الرزق ، لأن الرزق مما يرتاح له ، وذلك على طريق المجاز المرسل الذى علاقته اللزومية ، أو استعار الريحان للرزق بجامع الراحة واستطابه النفس فى كل .

والتنكير فى (روح وريحان) للتعظيم .

وفى قوله (فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ) التفات ، ومقتضى الظاهر أن يقال : فسلام له ، فعدل إلى الخطاب لاستحضار تلك الحالة الشريفة أى : فسلم عليه أصحاب اليمين ، وهذا كناية عن كونه من أهل منزلتهم و(من) على هذا ابتدائية .

قوله(فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ) التعبير بنزل استعارة تهكمية حيث استعار ما يعد من كرم الضيافة لعذابهم فى النار على طريق الاستعارة الضدية.

وقوله(وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) من الكلام الموجه لإيهامه أن يصلى له الشواء فى نزله على طريق التهكم أى : يحرق بها.

(إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) الإشارة هنا للتعظيم ، ثم جاءت الجملة مؤكدة بإن واللام واسمية الجملة وضمير الفصل ، وإضافة شبه المترادفين إما لأنه رد على المكذبين ، وإما لبيان عظمة ما ذكر فى السورة وتأكيد كونه عين الحق .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ)أمر من الله تعالى بالتسبيح لما يستحقه الله لعظمته وهو ثناء يتضمن حمد النعمة وما هدى إليه من طرق الخير ، والأمر هنا يراد به تجديد التسبيح والمداومة عليه إذا كان المخاطب بذلك هو الرسول – صلى الله عليه وسلم – فإنه غير مقصر عن التسبيح ، وإذا كان المراد من التسبيح هنا التعجب من حال الكافرين يكون لفظ (سبح) مجازا عن التعجب.

والله تعالى أعلى وأعلم

المعنى العام للآيات :

يخاطب الله تعالى المشركين ويبكتهم على تكذيبهم بالقرآن فيما نطق به قوله تعالى (نحن خلقناكم .... إلى هنا) من القوارع الدالة على كونهم تحت ملكوته تعالى من حيث ذواتهم ومن حيث طعامهم وشرابهم وسائر أسباب معايشهم ، والمعنى : فهلا إذا بلغت النفس أى الروح وتداعت إلى الخروج وأنتم حينئذ أيها الحاضرون حول صاحبها تنظرون إلى ما فيه من الغمرات ونحن أقرب إليه علما وتصرفا وقدرة منكم حيث لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا على كنهها وكيفيتها وأسبابها ، ولا أن تقدروا على دفع أدني شئ منها ، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا أو بملائكة الموت ، ولكن لا تبصرون ولا تدركون شيئا لجهلكم

بشئوننا (فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ) أى : غير مربوبين من دان السلطان رعيته إذا ساسهم واستعبدهم ترجعونها أى : النفس إلى مقرها عند بلوغها الحلقوم إن كنتم صادقين فى اعتقادكم ، فإن عدم تصديقهم بخالقيته تعالى لهم عبارة عن تصديقهم بعدم خالقيته تعالى بموجب مذهبهم .

فأما إن كان المتوفى من المقربين وهم السابقون من الأزواج الثلاثة فله روح أى : استراحة ، وقرئ بضم الراء أى : فروح وفسر بالرحمة لأنها سبب لحياة المرحوم وبالحياة الدائمة ، وريحان ورزق ، وجنة نعيم أى : ذات تنعم ، وأما إن كان من أصحاب اليمين ، فسلام لك : إخبار من جهته تعالى بتسليم بعضهم على بعض كما يفصح عنه اللام لا حكاية إنشاء سلام بعضهم على بعض ، وإلا لقيل : عليك ، والالتفات إلى خطاب كل واحد منهم للتشريف .

(وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ)وهم أصحاب الشمال عبر عنهم بذلك حسبما وصفوا به عند بيان أحوالهم بقوله (ثم إنكم أيها المكذبون الضالون) ذما لهم بذلك وإشعارا بسبب ما ابتلوا به من العذاب ، فنزل أى : فله نزل كائن من حميم يشرب بعد أكل الزقوم كما فصل من قبل (وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ) أى : إدخال فى النار ، وقيل : إقامة فيها ومقاساة لألوان عذابها ، وقيل : ما يجده فى القبر من سموم النار ودخانها (إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ) أى: الذى ذكر فى السورة الكريمة حق الخبر اليقين ، وقيل : الحق الثابت من اليقين .

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ) الفاء لترتيب التسبيح أو الأمر به على ما قبلها فإن حقية ما فصل فى تضاعيف السورة الكريمة مما يوجب تنزيهه

تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل من الأمور التى من جملتها الإشـــراك بـــه والتكذيب بآياته الناطقة بالحق .

هذا وبالله التوفيق ومنه العون ونسأله تعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير دائما ولله الحمد والمنة والفضل . وصلى الله على سيدنا محمد وعلـــى آلـــه وصحبه وسلم .

دكتور
عبد الرزاق عبد العليم ريان الشريف
كلية اللغة العربية – بإيتاى البارود
جامعة الأزهر

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- القرآن الكريم وبالهامش زبدة التفسير من فتح القدير - مختصر من تفسير الإمام الشوكانى المسمى (فتح القدير الجامع بين فنى الدراية والرواية من علم التفسير) لمحمد سليمان عبد الله الأشقر - الطبعة الثانية ١٩٨٨ الكويت .

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . لأبى السعود . الناشر دار إحياء التراث العربى ببيروت . بدون تاريخ .

٤- أسلوب السخرية فى القرآن الكريم د٠ عبد الحليم حنفى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧م.

٥- الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق . دراسة قرآنية لغوية وبيانية للدكتوره عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)الطبعة الثانية ١٩٨٧م دار المعارف بمصر .

٦- البحر المحيط . لأبى حيان . الطبعة الثانية ١٩٨٣م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٧- التحرير والتنوير . للشيخ محمد الطاهر بن عاشور . مكتبة المدينة المنورة بدون تاريخ .

٨- تفسير الخازن لعلاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الشهير بالخازن دار الفكر ١٩٧٩م.

٩- التفسير القيم لابن القيم . جمع محمد أويس الندوى - تحقيق محمد حامد الفقى دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٧٨م.

١٠- التفسير الكبير ومفاتيح الغيب . للإمام محمد الرازى الطبعة الأولى ١٩٨١م دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت .

١١- الجامع لأحكام القرآن . للقرطبى الناشر دار الكاتب العربى ١٩٦٧م .
١٢- الدر النظيم فيما ورد من أخبار حول آى الذكر الحكيم . للدكتور حمزة النشرتى والدكتور عبد الحميد مصطفى ، والشيخ عبد الحفيظ فرغلى طبعة ١٩٩٣م.
١٣- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ، للألوسى ، دار الكتب العلمية ببيروت الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
١٤- سنن الترمذى . دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٨٣م.
١٥- صحيح مسلم بشرح النووى . الطبعة الثانية ١٩٧٢ دار إحياء التراث ببيروت .
١٦- القاموس القويم للقرآن الكريم . للأستاذ إبراهيم أحمد عبد الفتاح طبعة ١٩٨٣م الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .
١٧- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للإمام الزمخشرى دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . الطبعة الأولى ١٩٧٧م.
١٨- متن صحيح البخارى بحاشية السندى للإمام البخارى . دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى بدون تاريخ .
١٩- المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز . لابن عطية دار الكتب العلمية ببيروت ١٩٩٣م .
٢٠- المعجم الوجيز . لمجمع اللغة العربية طبعة وزارة التربية والتعليم ١٩٩٤م.
٢١- معجم متن اللغة للشيخ محمد رضا . دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٠م.
٢٢- مغنى اللبيب . لابن هشام طبعة الجمالية بالقاهرة ١٣٢٩هـ.

٢٣- من اسرار التعبير فى القرآن . الفاصلة القرآنية . للدكتور عبد الفتاح لاشين طبعة ١٩٨٢م الرياض .

٢٤- من أسرار النظم فى القرآن الكريم . للأستاذ الدكتور عبد العظيم المطعنى والأستاذ الدكتور فريد النكلاوى طبعة ١٩٨٨م.

٢٥- من بلاغة القرآن . لأحمد بدوى . دار نهضة مصر للطبع والنشر بالفجالة القاهرة ١٩٧٧م.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
التمهيد	٨
الموضوع الأول : بداية مثيرة تهز القلوب	١٠
الدلالات اللغوية والإعراب	١٠
خصائص النظم والأسرار البلاغية	١٦
المعنى العام	١٨
الموضوع الثانى : أقسام الناس يوم القيامة	٢١
الدلالات اللغوية والإعراب	٢١
خصائص النظم والأسرار البلاغية	٢٤
المعنى العام	٢٥
الموضوع الثالث : جزاء القسم الأول من الأقسام السابقة وهم السابقون	٢٧
الدلالات اللغوية والإعراب	٢٧
خصائص النظم والأسرار البلاغية	٤١
المعنى العام	٤٩
الموضوع الرابع : جزاء القسم الثانى وهم أصحاب اليمين .	٥٣
الدلالات اللغوية والإعراب	٥٣
خصائص النظم والأسرار البلاغية	٦٢
المعنى العام	٦٤
الموضوع الخامس : عقوبة القسم الثالث وهم أصحاب الشمال..	٦٧

الموضوع	الصفحة
الدلالات اللغوية والإعراب	٦٧
خصائص النظم والأسرار البلاغية	٧٣
المعنى العام	٨٠
الموضوع السادس : دلائل وبراهين على قدرة الله تعالى . واشتمل على..	٨٤
(أ) الخلق والموت .	٨٤
الدلالات اللغوية والإعراب	٨٤
خصائص النظم والأسرار البلاغية	٨٧
المعنى العام	٨٩
(ب) الحرث والزراعة .	٩٠
الدلالات اللغوية والإعراب	٩٠
خصائص النظم والأسرار البلاغية	٩١
المعنى العام	٩٣
(ج) ماء الشرب ونار الإيقاد.	٩٤
الدلالات اللغوية والإعراب	٩٤
خصائص النظم والأسرار البلاغية	٩٦
المعنى العام	٩٧
الموضوع السابع : قسم الله على عظمة القرآن الكريم	١٠٠
الدلالات اللغوية والإعراب	١٠٠
خصائص النظم والأسرار البلاغية	١٠٥
المعنى العام	١٠٧

الموضوع	الصفحة
الموضوع الثامن : قدرة الله على الإماتة وعجز الناس عن المقاومة وجزاء كل نوع.	١١٠
الدلالات اللغوية والإعراب	١١٠
خصائص النظم والأسرار البلاغية	١١٤
المعنى العام	١١٦
المصادر والمراجع	١١٩
الفهرس	١٢٢